13 me Année No. 640

Lundi - 8 - 10 - 1945

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٦٤٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢ ذو القعدة سنة ١٣٦٤ — ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

مشقة التحصيل

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

منذ ربع قرن تقريباً ، زارنى شاب فى جريدة الأخبار وشكا إلىّ المرحوم شوقى الشاعر وقال : إنه ذهب إليه يستشيره فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية ، فأشار شوقى عليه بدرس كتابين وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة ، فاعتقد أنه أضاع ماله ، وأن شوقى أخطأه التوفيق . فقلت له : إن شوقى لم يخطئ ، فإن النحو والصرف وما يجرى هذا المجرى لا بد منه ، ولا غنى عنه ، ولكل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها وفقهها ، والإحاطة بهذا كله واجبة إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة ، وإلا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها ؟ وصحيح أن الكتب العربية القديمة تحتاج إلى تيسير مطلبها ، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء ، فاعرف لغتك أولا ، وادرس أدبها ، ثم عالج بعد ذلك ما شئت من فنون الكتابة ، واعلم أنه لا مطمع لأحد فى بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلا بالاطلاع الوافى ، ولما كانت لغتنا العزيزة ، فهى أداتنا التى لا أداة لنا سواها ، ولا سبيل لنا إلى البيان إلا بها ، فلا مهرب لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفر على درسها

وقد حدث شوقى — رحمه الله — بهذا ، فقد كنا نلتقى فى « الأخبار » ، ونتذاكر على الرغم من رأيى المعروف فى شعره ، فقال لى : يا أخى لقد كنت فى بداية عهدى بالشعر ، بعد أن عدت من أوربة ، ألحن وأخطئ فيسلقنى الناقدون بألسنة حديدة ، فالآن أنصح للشبان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم فيشكوننى ويعيبوننى بذلك !

وقد قلت أيضاً لذلك الشاب المتذمر : إنى لا أرى الاقتصار على درس اللغة العربية وآدابها ، فإنه لا يكفى طالب الأدب ، بل لا بد من التوفر على درس الآداب الأخرى ، ولا سيما الغربية منها . وحسب طالب الأدب لغة واحدة كالإنجليزية مثلا ، فإن براعات الآداب الأخرى مترجمة إليها ، وقد كان العرب حصيفين حين عنوا بنقل الفلسفة الإغريقية فاتسعت آفاقهم . ولسنا نستطيع فى عصرنا هذا أن ننقل خارجيات الغرب فى الأدب والفلسفة ، فإنها شيء لا آخر له ، ولكن فى وسعنا أن نطلع عليها ونلم بها إلماماً كافياً بإحدى اللغات الغربية ، ونحن نلقح الشجر ليثمر ، ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب ، ويجنينا ما هو أشهى ، فلنلقح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب ، ليعود أوفر إنتاجاً وأحلى جنى . ونحن آدميون ، والشجر نبات ؛ ولكن سنة الحياة واحدة ، وقانونها لا يختلف ، وهو واحد فى كل مظاهر الحياة على السواء ، وما

يصير به النبات أقوى وأزكى ، يصير بمثله الحيوان — ونحن منه — أقدر على معاناة الحياة وأصلح لها وأنجب . وليس مما يصح فى الأفهام أن نكون فى القرن العشرين ، ونقنع بأن نعيش بمقول القرون الخالية . وأخلق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقاً — متخلفاً من الأزمنة البائدة ، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذى خرجنا فيه

وأنا أعرف أن فى هذا مشقة عظيمة ، ولكن الثواب على قدرها ، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة ، بل كد ونضال وكفاح وما يبلغ المرء فى دنياه غاية أو يدرك شيئاً إلا بالكفاح وعرق الجبين المتفصد ، فلما ذا نستثنى الأدب ونراه أهون شأناً وأيسر مطلباً من أن يحتاج إلى عناء ؟

وليعذرنى القراء الأفاضل إذا رأونى ألح على شباننا أن يعكفوا على التحصيل ويجدوا فيه ويشقوا أيضاً ، فقد رأيت شباناً كثيرين فى مصر أكبر ظنى أن لهم أنداداً فى غيرها يستثقلون الطلب ويستطيلون مدته ويستكثرون الجهد الذى يقتضيه ويستخفون بالأمر كله ويحاولون أن يرقوا بغير سلم ، وأن يبلغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة ، فلا يأتون إلا بأغث الغثاثة وأسخف السخف ، ثم يروحون يتذمرون ويجأرون بالشكوى ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار ، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجههم ويعترضون سبيلهم حسداً ، إلى آخر هذا الهراء . وتقول لهم : إن كل علم وفن مثل الطب والهندسة والتصوير والموسيقى ، إلى آخر ذلك يحتاج إلى درس طويل وتحصيل واف ، فإن الملكة وحدها لا تكفى ، والاستعداد بمجرده لا غناء له ، ما لم تؤازره المعرفة الصحيحة ، فلما ذا يعدون الأدب بدعاً يرونه مما يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة ؟ فلا يقتنعون ، أو على الأصح ، لا يستطيعون أن يروضوا أنفسهم ويوطنوها على احتمال المشقة

وأوثر أن أكون صريحاً فأقول : إن هذا تطرّ لا يعجبنى ، وكسل لا أراه بشيراً بخير ، فيحسن أن أورد طائفة من الأمثلة تبين أى مشقة احتملنا ، وأى عناء صبرنا عليه ، وأى جهد تكلفناه فى حداثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلع إلى منازل الأدباء . وقبل ذلك أقول : إن مما نفعنى وأغرانى برياضة نفسى على التشدد والتجلد كلمة قرأتها ومنظر رأيته ، فأما الكلمة ، فقول كوبيت فى كتابه « نصيحة إلى الشبان » إن على الشباب إذا أراد أن يكون رجلا كاملا لا نصف رجل أن يحلق ذقنه كل صباح بالماء البارد فى الشتاء ، وجو انجلترا من أقسى الأجواء . فقلت لنفسى : إن مصر جوها معتدل ، فأنا أولى بهذه النصيحة وأقدر على العمل بها . وتوخيت بعد ذلك أن لا أستعمل إلا الماء البارد فى كل حال فنفعنى هـذا وقوانى على احتمال المؤثرات الجوية وإن كان بدنى خرعاً . وأما المنظر ، فكان شاباً من العمال راقداً على الحجارة فى وقدة الظهر وشمس الصيف تضربه ، وكنت يومئذ فى السابعة عشرة من عمرى ، فقلت لنفسى : أنا أتململ لأن وسادتى ليست محشوة بريش النعام ، وسجادتى ليست من صنعة العجم ، وهذا الغلام ينام على الحجارة ولا يتأفف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه ... أما والله لا اتخذت بعد اليوم شيئاً وثيراً ! وما زلت إلى اليوم أوثر الخشن على الرقيق ، وليس فى بيتى كرسى مريح أو فراش لين ، لأنى أخجل أن أكون مترفاً . ورضت نفسى على الجلد ، فاتفق فى أول عهدى بدرس الأدب أن وقعت فى يدى نسخة من ديوان « الشريف الرضى » مطبوعة فى الهند ، ليس فيها بيت واحد يسلم من التحريف ، فما استطعت أن أفهم شيئاً ، وكدت أيأس ، ولكنى تشددت وأقبلت عليه أعالج تصحيحه ، وقضيت فى ذلك قرابة عامين وأنا أوفق قليلا وأخفق كثيراً ، حتى هدانى الله إلى ديوانه المطبوع فى بيروت ، وهو أصح وأسلم من الخطأ ، وإن كان لا يخلو منه ، فتنهدت واسترحت .

وحبب ابن الرومى إلىّ ما قرأته له مبعثراً فى كتب شتى ، فطلبت ديوانه ، فلم أجد إلا مخطوطاً — أعوذ بالله منه — فى دار الكتب المصرية ، وكان فيها مخطوطان آخران ، ولكنى لم أعط إلا أسوأ الثلاثة وشرها ، فاستنسخته وعكفت عليه سنوات طويلات المدد أحاول التصحيح والضبط ، فلم أبلغ من ذلك ما أريد ، ولكنى بذلت غاية ما يدخل فى الوسع

وكان من أول ما اقتنيت ، الأغانى طبع الساسى ، وهى نسخة

في إرشـــاد الأريب
إلى معرفة الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ١٢ —

* ج ١٦ ص ١٩٨ :

وإذا بلوتُ طبـــاعه فالماء يشرب وهو عَذْب
وقصارى وصـــفى أنه فيما أحبّ كما أحبْ

قلت : (فالماء يشرب وهو عذبُ) ليكون الضرب مرفلاً ، لأن الضرب فى البيت الثانى لا يجىء بالسكون — إن فرض أن (أحب وأحب) ماضيان — إلا من الصحيح ، فيختلف الضربان . والفعلان إنما هما ها هنا مضارعان : (فيما أحبُّ كما أُحبُّ) فالشاعر يصف حال صاحبه كما يراها هو ، ولا يقصد ما يشا كل معنى القائل : « كأنك قد خلقت كما تشاء » .

و (قصارى) فى البيت هى (قصار[1]) لأجل الوزن ، واللفظتان بمعنى واحد ، ومثلهما (قَصرك وقُصيراك) . وقد جاءت (قصار) فى كلام مأثور مشهور مظلم النسبة .

قال الزمخشرى فى شرح مقاماته : ومن توقيعات عبد الله بن طاهر فيما سمعته من أبىْ : « غرك عزك ، فصار قصار ذلك ذلك ، فاخش فاحش فعلك ، فلعلك بهذا تَهدأ » .

وقال ابن خلكان فى الوفيات : كتب إلىّ عضد الدولة أبو منصور أفتكين التركى متولى دمشق كتاباً مضمونه أن الشام قد صفا وصار فى يدى ، وزال عنه حكم صاحب مصر ، وإن قويتنى بالأموال والعدد حاربت القوم فى مستقرهم . فكتب عضد الدولة جوابه هذه الكلمات وهى متشابهة فى الخط لا تقرأ إلا بعد الشكل والنقط والضبط وهى (غرك الخ) ولقد أبدع فيها كل الإبداع .

وفى (التاج) : وروى عن على (رضى الله عنه) أنه كتب إلى معاوية : (غرك الخ) وهى رسالة تصحيفية غريبة فى بابها .

(١) بفتح أوله وضم . فى التاج : أى جهدك وغايتك وآخر أمرك وما اقتصرت عليه .

محشوة بالغلط ، ففككت الأجزاء « ملازم » ، وجعلت أحمل الملازم معى واحدة واحدة إلى دار الكتب فى أوقات فراغى ، وأراجع النصوص نصاً نصاً ، وبيتاً بيتاً ، وأدون التصحيح . أو التكملات على ورق أبيض أعددته لذلك ، وصرت ألصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة ، حتى إذا انتهيت من جزء جلدته وانتقلت إلى ما يليه . وهكذا حتى أتممت الكتاب كله ، فصار ضعفى حجمه الأصلى . وحدث لسوء حظى فى أيام الحرب الماضية أن رقت حالى فجأة ، واحتجت إلى مال ، وأنا امرؤ ربتنى أمى — رحمها الله — على الاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس ، وبغضت إلى الاستدانة وكل ضروب الاستعانة بالغير فلم أجد لى حيلة إلا أن أبيع ما اقتنيت من كتب ، ورأى بعضهم عندى نسخة الأغانى هذه ، فألحف فى طلبها ، فأبيت أن أبيعها ، فلم يزل يزيد فى الثمن ويرتفع به ، حتى أغرانى ، وما كاد يخرج بها ، حتى طار عقلى ، وندمت أشد الندم ، فإنها ثمرة تعب سبع سنوات ، ولكن أمى فاءت بى إلى السكينة وقالت لى : « ألست قد قرأتها ؟ انتهينا إذن ولا داعى للأسف » ! فجعلت بعد ذلك أعزى نفسى بقولى : إن فائدة القراءة كفائدة الطعام ، والمرء يأكل ليصح بدنه ، ولو أنى نسيت اليوم ما أكلت فى أمسى ، لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت ، وأن جسمى انتفع بما طعمت وكذلك العقل : يقرأ المرء ليستفيد علماً ويقوى مداركه وينمى ملكاته ، ولا يمنع حصول الفائدة أنه نسى ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود .

وحسبى هذه الأمثلة القليلة ، والحقيقة أننا أعطينا الحياة لنحياها ، لا لنتنعم بها أو نسعد ، ومعنى أن نحيا أن نعمل ، ومؤدى العمل أن نكدح ونتعب ، والأدب مطلب كسائر المطالب له وسائله ، فلا معدى عن العناء فى سبيله .

ابرهيم عبد القادر المازني

* ج ١ ص ٤٦ : وأطوف على مصنف فيهم يشفى العليل ، ويداوى لوعة الغليل .

قلت : عندى أن الأصل : (يشفى العليل ، ويروى الغليل) أو يروى غلة الغليل .

والغليل العطشان ، والغليل حرارة العطش مثل الغلة . فى اللسان : الغُلل والغُلة والغَلل والغليل كله شدة العطش قل أو كثر . رجل مغلول وغليل ومغتل بيِّن الغلة .

* ج ١ ص ٤٨ : ... والإخباريين .

قلت : والأخباريين . فى التاج : والأخبارى المؤرخ نسب للفظ الأخبار كالأنصارى والأنماطى وشبههما .

* ج ١٢ ص ٧٧ :

وذاك آخر عهد من أخيك إذا ما المرء ضمَّنَـهُ اللحدَ الخناشير

« الواحد خنشير والجمع الخناشير ، ويقال الخناشرة وهم الذين يتبعون الجنازة .

قلت : الخناسير بالسين . فى التاج فى (خسر وخنسر) : الخناسير ضعاف الناس وصغارهم ، قال شيخنا : ووقع فى شعر حريث بن جبلة العذرى : (وذاك آخر عهد البيت) قال أبو حاتم : الخناسير الذين يشيعون الجنازة ، ونقله البغدادى فى شرح شواهد المغنى .

وفى اللسان : خناسر الناس صغارهم والخنسر اللئيم . ولم يذكر فى (خشر) إلا الخاشرة والُخشار : السفلة من الناس .

وبيت (الخناسير) هو فى أبيات رواها ياقوت فى (الإرشاد) وروى الحريرى ستة منها فى (الدرة) وذكرا قصة لها :

قال عبيد بن شرية : مررت ذات يوم بقوم يدفنون ميتاً لهم ؛ فلما انتهيت إليهم اغرورقت عيناى بالدموع فتمثلت بقول الشاعر :

وبينما المرء فى الأحياء مغتبط إذصارفى الرمس تعفوه الأعاصير

يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته فى الحى مسرور(١)

فقال لى رجل : أتعرف من يقول هذا الشعر ؟ قلت : لا . قال : إن قائله هذا الذى دفناه الساعة ، وأنت الغريب الذى يبكى عليه ، ولست تعرفه . وهذا الذى سار عن قبره هوأمس الناس رحماً به وأسرهم بموته ...

(١) قال الحريرى فى الدرة : ويقولون : هو قرابتى والصواب أن يقال : ذو قرابتى كما قال الشاعر : يبكى الغريب الخ .

* ج ١ ص ٤٨ : وكنت مع ذلك أقول للنفس مماطلاً وللهمة مناضلاً : رب غيث غب البارقة ، ومغيث تحت الخافقة .

وجاء فى الشرح : الخافقة واحدة الخوافق ، وخوافق السماء : مهب الرياح الأربع .

قلت : الخافقة هنا هى الرايات أو الأعلام . فى الأساس : وخفق العلم ، وأعلامهم تخفق وتختفق . وفى اللسان : وتسمى الأعلام الخوافق والخافقات . والمغيث هنا هو المغيث وقت القتال . والبارقة السحابة ذات برق ، والبارقة السيوف على التشبيه بها لبياضها . وفى حديث عمار (رضى الله عنه) الجنة تحت البارقة أى تحت السيوف .

* ج ١ ص ١٩٢ : قال (جرير بن أحمد بن أبى دؤاد) : كان ابراهيم (بن العباس الصولى) أصدق الناس لأبى فعتب على ابنه أبى الوليد فى شيء ، فقال فيه أحسن قول : ذمه فمدح أباه . وما أحسن هذا من جهة جرير ! :

عفت مساو تبدت منك واضحةً على محاسن نقاها أبوك لكا

لئن تقدمت أبناء الكرام به فقد تقدم آباء الكرام بكا

قلت (ذمه ومدح أباه) أى جمع بين الأمرين .

و (عفت مساوى تبدت منك ، واضحةٌ) برفع واضحة وإن جاز نصبها . وقد خفف مساوئ وقدّر .

و (نقاها) هى (أبقاها) وعجز البيت الثانى هو (لقد تقدم آباء اللئام بكا) وهنا النكتة ، وهنا الذم البليغ .

والقاضى أحمد بن أبى دؤاد هو الذى يقول حبيب فيه :

لقد أنست مساوىء كل دهر محاسنُ أحمد بن أبى دؤاد

ولما ذكر الصفدى فى كتابه (الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم(١)) « الذين رزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها » قال فى أحمد : « القاضى أحمد بن أبى دؤاد فى المروءة وحسن التقاضى » .

وقال ابن خلكان فى سيرته فى كتابه : « كان معروفاً بالمروءة والعصبية » يعنى العصبية العربية .

* ج ١٤ ص ٢١٧ : ... فألَّب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغَب ، وعظم الخطْب ...

قلت : (الشغب) بالتسكين لأجل الخطب . والمجانسة بين القرائن فى السجع مطلوبة . والفتح لغة وليس بخطأ كما قال

(١) تراجم الرسالة ٦٠٧ ص ١٨١

الطهارة والوضوء

للدكتور جواد علي

الطهارة ركن من أركان الصلاة عند جميع الأديان . وتشمل طهارة الجسم ، وطهارة الثياب ، وطهارة الأرض . فاشترطت الديانة الرومانية على المصلى لبس الملابس النظيفة « فيلبس المستغيث ألبسة نظيفة لما وقر فى الأذهان من أن الأرباب يرغبون فى النظافة »(١) . واشترطت مثل هذه الشروط سائر الأديان القديمة مثل الديانة البابلية والمصرية والهندية . ويلعب الغسل دوراً هاماً فى طهارة الجسد وفى بعض الطقوس ولا سيما فى الديانات التى نشأت على مقربة من الماء(٢) .

وجعل الغسل العام أو الغسل الموضعى كواجب من الواجبات الشرعية حتمت الديانة « البارسية » الفارسية القديمة على الفارسى عند نهوضه من نومه صباحاً وجوب غسل وجهه وعينيه ويديه وقدميه ثلاث مرات . ويستعمل لذلك مادة « Kuhurin » وهى مادة طاهرة مقدسة تستخرج من عصير الأثمار وتستعمل بعد الغسل بالماء(٣) . ويجوز استخدام الحشائش الجافة لمسح أجزاء الجسم . أما الحشائش المبتلة فلا يجوز استخدامها لأن الماء طاهر ومقدس لا يجوز تنجيسه(٤) .

وإذا ما ابتدأ الإنسان بغسل وجهه وعينيه ويديه وقدميه ثم أعوزه الماء ، وجب عليه « التيمم » بالرمل فيمسح بالرمل تلك الأجزاء لأن الرمل مادة طاهرة مطهرة مالم تدنس(٥) . وقد ورد مثل ذلك فى الشريعة الاسرائيلية ، فعلى اليهودى إذا ما استيقظ فى الصباح أن يغسل وجهه وعينيه ويديه ، وإذا ما أعوزه الماء جاز له التيمم أيضاً(٦) .

---

(١) شارل سنيوبوس تاريخ الحضارة ترجمة محمد كرد على سنة ١٩٠٨ ص ١٢٧ .

(٢) راجع Hastings Ency of Art and Reli وكتب تاريخ الأديان .

(٣) Scheftelowitm The old Persian Rel p, 129 .

(٤) Saddar c. 50 Vend 18, 21 p, 129 .

(٥) Saddar C. 50. 74 Vend 18, 21 .

(٦) Sehulkan cAruk, Orah Hajjiw, 4, 3lb, 3, 592

الحريرى فى (الدرة) وليس هو من كلام العامة كما ذكر ابن الأثير فى النهاية .

* ج ٣ ص ١٣١ : ... فقال (أبو العلاء) لى (للتبريزى) قم وكله ، فقلت : حتى أتم السياق فقال : قم وأنتظر لك .

وجاء فى الشرح : السياق فى الأصل : السيق :

قلت : فى (الصبح المنبى عن حيثية المتنبى) : (حتى أتم السبق وأنا أنتظرك) وضبط اللفظة — كما جاءت فى الصبح — الفضلاء(١) الذين جمعوا وحققوا كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) وقالوا فى الشرح : السبق بالتحريك يراد به الدرس وهذه الكلمة لم ترد فى المعاجم بهذا المعنى ، وشاعت فى الفارسية بمعنى الدرس نقلاً عن العربية .

* ج ١٣ ص ٢٨٥ : كان (على بن عبد الله بن وصيف الناشئ) شيخاً طويلاً جسيماً ، عظيم الخلقة ، عريض الألواح ، موفر القوة ، جهورى الصوت ، عمر نيفا وتسعين سنة لم تضطرم أسنانه ، ولا قلع سناً منها ولا من أضراسه . وكان يعمل الصفر ويخرّمه ، وله فيه صنعة . ومن عمله قنديل بالمشهد بمقابر قريش مربع غاية فى حسنه .

وجاء فى الشرح : (لم تضطرم) فى الأصل تضطرب .

قلت : (الاضطرام) الاشتعال ، و (الاضطراب) التحرك والاختلال ، وهذا أقرب إلى المراد . وربما كان الأصل (لم تنفض أسنانه) ونفضت الثنية أو السن : تحركت واضطربت .

كان الناشئ ذا هزل ومجون فى المناظرات وغيرها ومن مجونه — كما روى ياقوت — « حكايته المشهورة مع الأشعرى الذى ناظره فصفعه فقال (الأشعرى) ما هذا يا أبا الحسين ؟ فقال : هذا فعل الله بك ، فلم تغضب منى ؟ فقال : ما فعله غيرك ، وهذا سوء أدب وخارج عن المناظرة . فقال : ناقضت . إن أقمت على مذهبك فهو من فعل الله ، وإن انتقلت فخذ العوض . فانقطع المجلس بالضحك وصارت نادرة » .

« قال عبيد الله الفقير إليه تعالى مؤلف هذا الكتاب : لو كان الأشعرى ماهراً لقام إليه وصفعه أشد من تلك ثم يقول له : صدقت . تلك من فعل الله بى ، وهذه من فعل الله بك ، فتصير النادرة عليه لا له » .

---

(١) الأساتذة : طه حسين ، مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود ، عبد السلام هارون ، ابراهيم الأبيارى ، حامد عبد المجيد .

ويبتدى المرء بالغسل عند «الفرس» باليد اليمنى وبالنصف الأيمن من الجسم دائماً . واذا أراد لبس حذائه بدأ بالرجل اليمنى وتجد مثل هذه التعاليم عند اليهود أيضاً [١].

وتتناول الطهارة طهارة الجسم من الأدران وطهارة الملابس وطهارة الأرض أو الموضع الذى يصلى عليه المؤمن . ويجب أن يتم ذلك قبل الشروع فى الصلاة وإلا عدت الصلاة شرعاً باطلة . وتختلف قواعد الطهارة طبعاً باختلاف الأديان وباختلاف وجهات نظر الشعوب . إلا أنها تتفق عموماً فى أساس الفكرة وهى فساد أية صلاة إذا كان المصلى على نجاسة . ولذلك وجب على المصلى إزالة كل أثر من آثار النجاسات .

ونجد مثل ذلك فى الشريعة الإسلامية ، فالطهارة فى الإسلام شرط مبدئى من شروط صحة الصلاة . وعلى المسلم إزالة كل أثر من آثار النجاسة . عليه الغسل إن كان ذلك واجباً عليه . وعادة الغسل من الجنابة عادة كانت معروفة فى الجاهلية وقد أقرها الإسلام. وعليه فضلا عن ذلك أن يتوضأ قبل البدء بالصلاة — والوضوء ضرب من ضروب الطهارة — وإلا لن تصح له صلاة .

وقد نص القرآن الكريم على كيفية الوضوء والتيمم، وفصلت كتب الفقه ذلك تفصيلا . وبحثت بحثاً مستفيضاً فى الماء والغسل والنجاسات . وقد توسعت الكتب فى هذا الباب وتفننت كلما تقدم المسلمون فى الحضارة وأمعنوا فى المدنية . وتكاد تتقارب أفكار اليهود بالنسبة إلى الطهارة والنجاسة مع أفكار المسلمين تمام التقارب . على أن اليهود وإن تساهلوا فيما بعد فى الشروط التى تجب فى المصلى بالنسبة إلى الطهارة ، وفى كثير من القيود الثقيلة التى كانت عندهم فى عهودهم الأولى . غير أن كتبهم الدينية كانت قد امتلأت بهذه القيود . وفى « المشنا » [٢] وهو الكتاب الجامع لأحكام اليهود ومعظم فقههم والمفسر لكثير من قواعد التوراة « Tarah » وتعاليم المعلمين « Tannaim » . والذى بدأ به « هيليل — Hillel » اليهودى البابلى فصول طويلة عن شرائط

(١) Scheftelowitm p, 129 The old Persi Reli and The Jsra Rel.

(٢) عن المشنا « misehnâ » راجـــع Cohen, Everyman's Telmue Introduction p, 22.

الطهارة فى الصـــلاة أهملت فيما بعد وسقطت عملياً من الاستعمال [١] . سقطت هـذه قبل ظهور الرسول بزمن طويل . وأغلب الظن أنها تركت بعـد سقوط الهيكل بأيدى الرومان إذ تسامح اليهود منذ ذلك الحين فى كثير من أحكام دينهم الصعبة . وإن كان المستشرق اليهودى المرحوم « ميتوخ » يؤكد أن يهود جزيرة العرب ويهود الحبشة ظلوا مخلصين لهـذه التعاليم مطيعين لها حتى زمن ظهور الرسول [٢] وغرضه من ذلك على ما يظهر هو البرهنة على أن النبى كان قد اقتبس من تعاليم هؤلاء اليهود . وقد عرفنا رأى هذا المستشرق فى الموضوع .

ويقول هذا المستشرق أيضاً « وأما الشروط التى نصت على أن الصلاة يجب ألا تقام فى محل نجس ، أو فى محل قذر ، وأن الملابس يجب أن تكون وفقاً للأحكام التى حددتها والمقاييس التى وضعتها بحيث لا يجوز ظهور جزء من الجسم الذى يعتبر فى حدود العورة فإن المسلمين فى هذا الباب هم كاليهود تماماً » [٣] .

أمر القرآن بالوضوء وقد ورد ذلك الأمر فى سورة المائدة [٤] وسورة المائدة من السور المدنية إلا الآية الثالثة فإنها نزلت بعرفات فى حجة الوداع . ومعنى هذا أن الأمر بالوضوء إنما كان بعد هجرة الرسول إلى المدينة . أى أن الوضوء لم يكن مفروضاً بمكة ؛ وهذا ما يتعارض مع الأحاديث المعروفة والأخبار الكثيرة التى تنص على أن الوضوء قد فرض مع الصلاة .

ففى كتب السير « أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليــه ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ثم انصرف جبريل ... » [٥] وهو خبر مشهود .

(١) Cohen Cverymau's Talmud p, 2? Intr mittwoch. p, 14 B'râkhoth, 3, 4. G'mârâ, 21 b.

(٢) mittwoch p, 14 .

(٣) mischnâ, Be'rahhoth, 3, 5 mittwoch, p, 15 .

(٤) سورة المائدة ٥ آية ٦ .

(٥) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٥٥ السيرة الحلبية جـ صـ ٢٥١ لا نجد هذا الخبر فى الطبقات لابن سعد جـ ١ صـ ١٧٨ .

ويفهم من هذا الخبر أن الأمر بالوضوء إنما كان بمكة مع الصلاة . في حين أن النص القرآني وهو نص مدني يأمر بالصلاة في المدينة بعد هجرة الرسول . وهذا يعني أن الأمر بالوضوء لم يكن قد نزل إلا بعد نزول الأمر بالصلاة بزمان . ويترتب على ذلك أن صلاة الرسول من حين أمر بالصلاة إلى حين نزول الآية كانت بغير وضوء .

وجاء في السيرة الحلبية « ومشروعية الوضوء كانت مع مشروعية الصلاة التي هي غير الخمس وأن ذلك كان يوم نزول جبريل باقرأ ، وهو يخالف لقول ابن حزم لم يشرع الوضوء إلا بالمدينة . ومما يرد ما قاله ابن حزم نقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أنه لم يصل قط إلا بوضوء »[١]

والذي يفهم من قول صاحب السيرة أن العالم ابن حزم كان يعتقد بأن فرض الوضوء كان بالمدينة لما يعرف من أن الآية مدنية . وقد انتبه العلماء إلى ذلك . ويخيل إلي أن ذلك كان متأخراً . فحاول أكثرهم التمسك بالخبر والتوفيق بينه وبين الآية وتحايلوا في التأويل والفرضيات ليبرهنوا على أن صلاة الرسول الأولى لم تكن بغير وضوء . فقالوا « إنه لم يشرع وجوباً إلا في المدينة وإنه كان قبل ذلك مندوباً وهو قول بعض المالكية . أي أنه مكي بالفرض مدني بالتلاوة[٢] واعتمدوا في تأويلاتهم هذه على بعض الأخبار الغامضة وهي في حد ذاتها أخبار لا قيمة لها بالنظر إلى نص القرآن .

قالوا بأن « مشروعية الوضوء كانت مع مشروعية الصلاة التي هي غير الخمس وإن ذلك كان يوم نزول جبرئيل باقرأ »[٣] ثم تراهم يقولون « بأن الغسل كان واجباً عليه لكل صلاة فنسخ بالحدث الأصغر تخفيفاً فصار الوضوء ثم نسخ الوضوء لكل صلاة »[٤] . وهذا ما يتعارض مع قولهم السابق بالطبع إذ يعني هذا أن النبي كان يغتسل أولا للوضوء ولما شق عليه ذلك خفف عنه بالوضوء بالنسبة للحدث الأصغر . وظل الغسل مشروعاً بالنسبة للحدث الأكبر فقط وعلى المسلمين حتى اليوم .

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٥٣ .
(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٥٣ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٣

ومعنى هذا أيضاً أن الوضوء لم يكن مفروضاً مع الصلاة مباشرة ، بل كان النبي يغتسل أولا لكل صلاة ، ثم خفف ذلك عنه بالوضوء . وقد كان هذا الغسل بمثابة طهارة عامة للجسم قبل الشروع في الصلاة . وكان عرب الجاهلية يفعلون ذلك قبل الطواف بالبيت[١] . ثم نسخ الغسل بالوضوء . والظاهر أن هذا النسخ كان بالمدينة ، فأصبح النبي والمسلمون يتوضأون من حين نزول الآية بدل الغسل .

وعند ما نزلت الآية كان النبي وأصحابه يتوضأون لكل صلاة وقد شق عليهم ذلك فيما بعد ، فلما كان يوم الفتح صلى الرسول الصلوات الخمس بوضوء واحد « فقال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه : فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، فقال عمداً فعلته يا عمر للاشارة إلى جواز الاقتصار على وضوء واحد للصلوات الخمس »[٢] . ثم خفف الوضوء بالتيمم عند فقدان الماء . وقد نص على ذلك القرآن الكريم . فترى من ذلك إذاً أن الأحكام الإسلامية كانت تسير من عسر إلى يسر ، ومن صعب إلى سهل ، حسب مقتضيات الظروف والأحوال .

وتشبه قضية الوضوء قضية قراءة سورة الفاتحة في الصلاة . إذ الفاتحة في الصلاة ركن من أركان الصلاة على أكثر الأقوال لحديث عبادة بن الصامت « لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب »[٣] ولحديث أبي هريرة « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ... »[٤] ومادامت الفاتحة ركناً من أركان الصلاة فقد وجب أن يكون نزول الفاتحة مع نزول الأمر بالصلاة في يوم واحد . والحال أن نزول السورة كان بعد ذلك بمدة .

فسورة الفاتحة مكية وقيل مدنية[٥] وقيل مكية مدنية ، وعلى كل فهي سورة متأخرة عن الصلاة . ولا يعقل أبداً أن تكون ركناً من أركان الصلاة قبل عهد النزول ، إذاً فالفاتحة ركن منذ

(١) راجع ولهوزن عن بقايا الوثنية العربية والكتب الباحثة عن عرب ما قبل الاسلام .
(٢) الحلبية ج ١ ص ٢٥٤ .
(٣) الخازن ج ١ ص ٢٠ .
( ) تفسير الخازن ج ١ ص ٢٠
(٥ الخازن ج ١ ص ١٢ .

عهد النزول . وكذلك كان الوضوء فأهمل الفقهاء ذلك والمحدثون ، وتصور الناس أن ذلك كان منذ أقدم عهود الصلاة . وهنالك إشارة وردت في الاتقان هي « أن جبريل حين حولت القبلة أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة ركن في الصلاة »[١] . ونحن نعرف أن تحويل القبلة كان بالمدينة بعد الهجرة بستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً[٢] . فإذا صحّ قول صاحب الاتقان وجب أن يكون ذلك في المدينة وبعد الهجرة كما رأيت . ولذلك فلا عبرة لكلام من قال « لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة »[٣] . ترى من ذلك أن كثيرا من الأحكام المعروفة لم يفحص حتى الآن فحصاً تأريخيا . والحق « إن الإسلام كان كلما ازداد ظهورا وتمكن في القلوب ازدادت الفرائض وتتابعت إلى أن تمت بآخر آية من آيات القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو فوق كل مرجع آخر في الإسلام .

جواد علي

(١) الحلية ج ١ ـ ٢٥٥ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ، ص ٦ .
(٣) الحلية ج ١ ص ٢٥٥ .

القضاء في الإسلام

قطعة ثالثة من محاضرة ألقيت في دمشق ولم تنشر

للأستاذ علي الطنطاوي

ولقد اشترط القانون اليوم فيمن يولى القضاء سناً معينة لابد من إكمالها وامتحانا مسلكيا . والشرع لم يشترط إلا البلوغ . ولما قلد المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة وكان ابن ثماني عشرة تكلم بعض الناس فيه لحداثة سنه ، فكتب اليه المأمون : كم سن القاضي ؟ فكتب في جوابه : أنا على سن عتاب بن أسيد لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة قاضياً وأميراً . فسكت عنه المأمون وأعجبه

والامتحان المسلكي معروف عندنا ، وقد دعا عمر قاضياً كان في الشام حديث السن فامتحنه بالعلم فقال له : بم تقضي ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بما قضى به رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بما قضى به أبو بكر وعمر . قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي . فقال له عمر : أنت قاضيها . ورده إلى عمله . وحديث عمرو بن العاص لما جربه النبي صلى الله عليه وسلم واختبره عمليا ، معروف معلوم

والقاضي الشرعي اليوم لا يجرب ولا يدرب ، كما يدرب (حاكم الصلح) إذ يعين عضواً ملازما ثم يبعث حاكما . بل إنه يستقل بالحكم من أول يوم . وهذا مما ينبغي النظر فيه . وليس يجوز أن ينفرد القاضي بالحكم حتى يتمرس به ويتمرن عليه مدة في محكمة من المحاكم ، فإذا استأنس الفتى رشده ولمس مقدرته على القضاء ، ورآه أهلا له ، قيل له ، اعل قوس المحكمة ، وتوكل على الله ، وكذلك في مصر يصنعون ، على ان القضاء الشرعي فيها (إلا الجزئي منه) قضاء جماعة ، فكيف وهو عندنا قضاء فرد ، وان وظائف القاضي من قضاتنا في أنأى محاكم الجزيرة أوحوران وسلطانه كسلطان قاضي دمشق أوحلب ينظر نظره في كل دعوى، ويحكم حكمه في كل خلاف . والقضاء في مصر على درجتين يؤمن معهما الغلط ، وهو عندنا على درجة واحدة ، ما فوق القاضي إلا محكمة التمييز (النقض والإبرام) وهي تعنى بالشكل لا بالأصل وتنقض حكم القاضي ولكنها لا تحكم في الدعوى .

* * *

هذا وإمام المسلمين مأمور بأن لا يقلد أحدا شيئاً من عمل المسلمين إلا إذا علم صلاحه له . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من قلد رجلا عملا وفي رعيته من هو أولى به منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين » .

وكان الخليفة هو الذي يقلد القضاء ، وربما قلده الوزير أو الأمير إذا ولاه الخليفة وصرح به في عهده ، لأن القضاء في الأصل من حق الخليفة ، وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم واستقضى، وقضى الخلفاء الراشدون من بعده واستقضوا . وفي تاريخنا أسلوب بارع لتقليد القضاء ، هو أن يدعو الخليفة أو الامير مشيخة العلماء وكبار القوم ويأمرهم أن يعرضوا عليه أسماء من يصلح للقضاء ، ويذكروا لكل عيوبه ومزاياه ، ثم يختار من تجمع عليه الكلمة أو من يظهر فضله على غيره ظهوراً لا خفاء فيه ، وأكثر ما رأيت هذا الأسلوب في قضاة مصر . ولقد كان تقلد عيسى بن المنكدر

وأبى الذكر محمد بن يحيى بالانتخاب ، ولما كان وفد مصر فى العراق عند المنصور وجاءه نعى قاضى مصر ، قال لهم : أعظم الله أجركم فى قاضيكم أبى خزيمة . ثم التفت إلى الربيع فقال له : ابغنا لأهل مصر قاضياً ، فقال له ابن حديج (وكان فى الوفد) : ما أردت بنا يا أمير المؤمنين ؟ ! أردت أن تشهرنا فى الأمصار بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرنا . قال المنصور فسمّ رجلا . فقال : أبو معدان اليحصبي . فقـال : إنه لخيار ولـكنْ به صمم ، ولا يصلح الأصم للقضاء . قال : فعبد الله بن لهيعة . فقال : فابن لهيعة .

انظروا أيها السادة إلى معرفة المنصور بأهل العلم من رعيته على بعد ما بين العراق ومصر ، ورجوعه عن أمره الذى أمر به الربيع لما بدا له الحق فيما قال ابن حديج . واختياره الصالح للعمل بعد الاستشارة والسؤال . وتوليته إياه القضاء من غير طلب له ولا سعى منه إليه . ولولا حق المجاملة وإنى ربما نشرت هذه المحاضرة فى الرسالة ، لقلت انظروا إلى حبّ أهل مصر بلدهم وقديم عصبيتهم له !

***

ونص الحنفية على أنه يجوز تقلد القضاء من السلطان العادل والجائر ، وإنما يجوز تقلد القضاء من السلطان الجائر إذا كان يمكنه من القضاء بحق ولا يخوض فى قضاياه بشر ولا يتداخل فى أحكامه ، ويجوز التقلد من أهل البغى كل ذلك لأن القضاء فريضة محكمة والقاضى إذا حكم بالحق فقـد أقام الفريضة ، وضرر تقلده من السلطان الجائر ، أو الغاصب الباغى لا يعدل ضرر تعطيل القضاء وترك أمور الناس فوضى !

وكان أبو حنيفة يرى ولاية القاضى سنة واحدة يعزل بعدها ليعود إلى الاشتغال بالعلم فلا ينساه ، وكأن أبا حنيفة ينظر إلى ما وراء القرون فيرى هذا الزمان الذى فيه العلماء ينصرفون عن العلم إذا ولوا الولايات فـكيف وقد كثر ما يتولاها الجاهلون ...

وكان طلب الرجل العمل قادحاً فى صلاحه ولم يكن الخلفاء يولون الأعمال طالبها . كان ذلك والإسلام إسلام ؛ والناس ناس ، فرحمة الله على أولئك الناس .

***

وكانت وظيفة القاضى (أى مرتبه) أجزل الوظائف ورزقه أكثر الأرزاق ، ففى العهد الذى كان عمر يلبس فيه الثوب المرقع ويقنع بالزيت ، وكان علىّ تجزئه قصعة ثريد ، كان مرتب شريح القاضى خمسمائة درهم فى الشهر ، وكان مرتب ابن حجيرة الاكبر كما ذكره الـكندى ، ألف دينار فى السنة فلا يحول عليه الحول وعنده منها شىء ، بل كان ينفقها على أهله وإخوانه وفى وجوه البر . وكان مرتب ابن لهيعة ثلاثين ديناراً فى الشهر . وأجرى مثل ذلك على القاضى المفضل به فضالة . وجعل عبد الله بن طاهر راتب القـاضى عيسى بن المنكدر أربعة آلاف درهم فى الشهر ، وراتب الفضل بن غانم مائة وثمانيـة وستين ديناراً فى كل شهر ، وكان راتب أبى عبيد القاضى الفقيه مائة وعشرين ديناراً فى الشهر ، وكان يقول : مالى وللقضاء ؟ لواقتصرت على الوراقة ما كان خطى بالردىء !

وقد نقل الـكندى فى تاريخه صورة براءة (سند راتب) من أيام مروان بن محمد فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبى عطاء إلى خزان بيت المال . فاعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين ومائة عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة . وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين ومائة) . وهى تبين لنا أن الرواتب قد تدفع سلفاً (وهى كذلك اليوم فى بلاد الشام) وتكشف عن ناحية من الأسلوب المالى لدفع المرتبات .

نظر خلفاء المسلمين بنور الله فدفعوا إلى القضاة المال الوفير ، والرزق الـكثير ، لتعفّ نفوسهم عن حرامه اكتفاء بحلاله ، وذلك ما تفعله أرقى الأمم فى زماننا وأقومها سيرة فى القضاء ، على أنهم لو تركوا قضاتنا إلى دينهم لوزعهم ، ولو خلوا بينهم وبين نفوسهم لقمعوها بخوف الله ، وأزاحوا شهوتها بانتظار جنته وخشية ناره . ولقد كانوا على هذا المرتب الـكثير ، والعطاء الجزل ، أولى تقشف وزهد ، ينفقون المـال يشترون به الجنة ثم يعودون إلى زهادتهم وقناعتهم : حدث إبراهيم بن نشيط قال : دخلت على القاضى ابن حجيرة الأصغر (وكان قد تغدى) فقال : أتتغدى ؟ قلت : نعم . قال : أعيدى عليه الغداء ياجارية . فأتت بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء . فقال : ابلل وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز !

وأىّ حقوق هى يا سادة ؟! حقوق الله ، حقوق الشرف والنبل والكرم . حقوق المسلمين . ابلل وكل يا إبراهيم ! هـذه لعمرى أعظم وأجلّ من موائد الملوك :

واسمعوا تتمة القصة تعلموا ما هذه الحقوق ؟ قال : وأتاه رجل يسأل حاجة . فقال : ليرجع .. وسأل عنه وحقق عن فقره ، فلما عرف فاقته . أعطاه ثمانية عشر ديناراً .

هذه هى التى تركته لا يشبع الخبز !

ولقد كانوا يغرمون الغرامات فى أموالهم : كان القاضى أبو زرعة كثير الشفقة رقيق القلب ، يغرم عن الفقراء والمستورين إذا أفلسوا ، حتى كان بعضهم إذا أراد أن يتكسب أخذ بيد رفيقه فادعى عليه عند القاضى ، فيعترف ويبكى ويدعى أنه لا يقدر على وفائه فيغرم عنـه . وحصلت لبعض الشاميين إضاقة (والشامى ولا مؤاخذة بصير باصطياد الدراهم) فقال لبعض أصدقائه : قدنى إلى القاضى فلعله يعطيك عنى شيئاً أنتفع به ، ففعل وقال : أيد الله القاضى : لى على هذا الرجل ستون درهماً . قال : ما تقول؟ فأقر . فقال : أعطه حقه . فبكى وقال : ما معى شىء ، فقال للمدعى : إن رأيت أن تنظره . قال : لا . قال : فصالحه . قال : لا . قال : فما الذى تريد ؟ قال : السجن . قال : لا تفعل . وأدخل يده تحت مصلاه فأخرج دراهم فعدّ منها ستين درهماً فدفعها إلى الرجل .

قال صاحب القصة : وآليت ألاَّ أعود لمثلها !

وكان بمصر أخوان توأمان تكهلا ولا يفرق بينهما من رآهما من قوة الشبه بينهما فوجب على أحدهما دين فحبسه القاضى أبو عبيد ، وكان أخوه يجىء زائراً له فيجلس مكانه فى الحبس ويتوجه الأول . وشاع ذلك حتى بلغ القاضى فأحضرهما وقال : أيكما فلان؟ فقال كل واحد منهما : أنا ! فأطرق القاضى . ثم طلب الغريم فدفع إليه الدين من ماله فراراً من الغلط فى الحكم . فهل سمعتم فى قضاة أمة بمثل هذا ؟

على أن فى القضاة من كان يقضى بالمجان . قال ابن خذام: ما أخذت على القضاء شيئاً إلا جوزتين فلما صرفت تصدقت بهما !
وقريب من هذا ماصنعه القاضى بكار بن قتيبة لما هم ابن طولون بخلع الموفق من ولاية العهد ، وأجابه القضاة كلهم إلا بكارا ، فطلب أن يلعنوا الموفق فامتنع بكار فألح عليه فأصرّ على الامتناع حتى أغضبه ، فقال له : أين جوائزى ؟ وكان يصله كل سنة بألف دينار ، فقال : هى على حالها ، هناك ، فنظروا فإذا هى ملقاة بأكياسها فى دهليز منزله . فبعث أحمد فقبضها .

* * *

على أن الغنم بالغرم . وإذا كثرت مرتبات القضاة فلقد كثرت تكاليفهم وازدادت الواجبات عليهم ، وإذا كان العرف اليوم على أن الموظف إذا قام بعمله كان حراً فى نفسه ووقته . وهو لعمر الفضيلة عرف أشبه بالنكر ، وإذا كان القانون اليوم لا (يكاد) يؤاخذ قاضياً على فسوق فى نفسه أو عصيان لربه ما لم يتصل بعمله ، فلقد كان القاضى يؤاخذ على الصغيرة والكبيرة وتطلب منه أخلاق الملائكة ، وشمائل الصديقين ، قد بوبت فى ذلك الأبواب ، وصنفت فيه الكتب ، وشاع واشتهر ، وأغنى الخبر فيه عن الخبر ، ولم يبق للكلام فيه مجال ، ولا لقائل مقال . وإنى لأسرد طائفة من ذلك على سبيل التمثيل عليها ، والإشارة إليها ، لا أريد التعلق منها بالمحاكمة وأصولها فسيأتى الكلام فى ذلك ، ولكن أريد شمائل القاضى وآدابه فى نفسه ، وملاكها استشعار التقوى ، وإدامة المراقبة لله عز وجل . وقد امتحن على رضى الله عنه قاضياً فقال له : بم صلاح هذا الأمر ؟ قال : بالورع . قال : فبم فساده ؟ قال : بالطمع . قال : حُق لك أن تقضى . ونصوا على أن من آكد الواجبات على القاضى ألا يحفل بالنـاس ، ولا تأخذه لومة من لائم ، وأن يقيم الحق ، ولو أغضب الحق أقواماً . قيل لشريح : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت وشطر الناس على غضبان .

وهذه يا أيها السادة مزلة أقدام القضاة ، ولا سيما فى أيامنا ، لأن القاضى اليوم لا يعدم فى كل قضية شفاعة ووساطة ، فإذا أمضى الحق لم يحفل بالشفاعات ولا الوساطات ، لم يخل من أعداء يشون به إلى أولى أمره ، ويسودون ما بينهم وبينه ، فيسوء رأيهم فيه ، ويطول عتبهم عليه ، ويؤخرون ترفيعه ، وربما احتالوا على قانون حصانة القاضى فنقلوه إلى مكان سحيق ، لأن العرف الحكومى اليوم أن الموظف الصالح هو الذى يألف ويؤلف ، ويرضى عنه من حوله ، ولا تثور عليه ثائرة ، ولا تضج ضجة . وهل ينال ذلك قاض نزيه لا يعرف من الطرق إلا الصراط المستقيم . وليس له

سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

- ١ -

تمهيد

مانحسب أن أحداً من المتقدمين أو المحدثين ، بحث فى السجون على التفصيل . فهذا مبحث بكر طريف ؛ سنحاول فيه أن نقدّم إليك صورة واضحة تبين لك سبب السجن ، وتريك أنواع السجون وضروب السجنى ، ثم نطوف عليهم ، فترى ما يأكلون وما يلبسون ؛ وكيف يفرّون ومتى يخرجون . فإذا فرغنا عقدنا فصلاً خاصاً بأدب السجون ، فأسمعناك طرفاً من الشعر المشرق الذى قيل فى السجن المظلم . ثم استدركنا ما فاتنا من الحوادث والأخبار المتعلقة بهذا الموضوع .

أسباب السجن

يتساءل الإنسان عند البحث فى هذا الموضوع ، عن الأسباب التى كان الناس يساقون بها إلى السجن . أفكانوا ينهجون نهجاً أو يتبعون شريعة إذا خرج عنها واحد ، عوقب بالسجن ؟ الحق أنه لم يكن شىء من هذا ، فقد كان يكفى أن يقول الخليفة أو الأمير أو صاحب الشرطة « الحبس » حتى يُودعوا من لُفظت بسببه المطبق[١] . فقد كان الحبس سلاحا فى يد الخلفاء والوزراء ، وقوّة يكيدون بها للمتمردين والعاصين والأعداء ، ويهددون مخالفيهم فيما يشتهون ويحبون .

على أننا إذا استقرينا النصوص والأخبار ، نجد أسباب السجن تتلخص فيما يلى :

(١) الوزارة سبيل السجن

ومن العجب أن نرى أن الوزارة كانت سبيلا يوصل إلى السجن فى غالب الأحيان . وندر مَنْ نجا من الوزراء ، ولم

(١) كتاب الديارات (مخطوط) انظر مثلا دير مديان

إلا وجهه الواحد الذى ركبه الله له . ولسانه الفرد الذى وضعه فيه ، وما معه إلا قانون واحد يسوق بعصاه الوجيه والخامل ، والكبير والصغير .

وقديماً نال بعض قضاتنا أذى كبير من أجل إقامة العدل ودحض الظلم ، والصدع بالحق ؛ ولكنهم صبروا فأعزهم الله بصبرهم وأظهرهم وأعلى أمرهم . هذا الحارث بن مسكين قاضى مصر يحمل إلى المأمون أيام المحنة ، محنة الدين والخلق التى جربت فيها صلابة الرجال ، وقوة العزائم ففاز فى هذا الامتحان أقوام وخسر أقوام . وكان إمام الفائزين أحمد بن حنبل — فيظل الحارث على ما يرى أنه الحق — ما لانت له عزيمة ولا وهت له قوة . وهـذا عمر بن حبيب القاضى لا يسعه أن يسمع الطعن على أبى هريرة ويسكت فيحتسب دمه عند الله ويردّ رأى الخليفة العظيم الذى قال للغمامة أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك : هارون الذى أباد البرامكة فى ساعة وكانوا أعزة الأرض وكرام الناس ، يرد عليه فيغضب ويعرضه على السيف والنطع ، فيغلب حقه وثباته عليه ، بطشة الرشيد البطاش ، فيلين ويعفو ويكافىء ويشكر .

* * *

أو سمعتم قصة سلطان العلماء العز بن عبد السلام القاضى ، أحد أفذاذ البشر علماً وحزماً وإيماناً ومضاء ، لما صح عنده أن المماليك لم يفارقهم الرقّ وهم حق لبيت المال ، والمماليك يومئذ هم الملوك يا سادة ! هم أصحاب الدولة والسلطان ، فنادى ببيعهم فقاموا عليه قومة رجل واحد ، وقام معهم كل متزلف من الناس لذوى الإمارة ، وهددوه وسعى ساعيهم بالسيف إلى باب داره ، فنزل إليه فأطفأ بهيبة إيمانه شعلة غضبه ، وفلّ بعزيمته حدّ سيفه . وبقى على موقفه منهم حتى باعهم فى سوق العبيد وقبض أثمانهم .. يا أيها السادة . إن منّا قضاةً كانوا يبيعون الملوك[١] !

(دمشق) **على الطنطاوى**

(١) اقرأوا ترجمة هـذه القصة إلى لغة الأدب عند إمام البلغاء صاحب (وحى القلم) .

يسجن . وربما قتل ولم يحبس ، وربما صابه الأمران معاً . فقد سُجن يعقوب بن داوود وزير المهدى[١] ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد ، ويحيى بن خالد وابنه الفضل[٢] وسجن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق بعد أن صودرت أمواله ، ونهبت دوره ، وضُمّت إلى القواد ضياعه[٣] . وسجن ابن الخصيب وزير المستعين ونكب[٤] . كما حبس أبو الصقر وزير المعتمد ، وقتل[٥] . ولم ينج محمد بن عبيد الله من السجن ، فقد عزله المقتدر من الوزارة وحبسه معَ ابنه[٦] .

وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع إلى أقوال المنافسين ، ويصغى إلى مقالة الحاسدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه . فإذا لم يسجن ، جاء خلفه فسجنه انتقاما منه ، وخشية أن يشغب فيبعده عن السلطان .

(ب) مناوئو الخلافة

أما مناوئو الخلافة ، والشاغبون عليها ، فكان مثواهم السجن . فقد سُجن عبد الملك بن صالح وقد سُعي به عند الرشيد بطلب الخلافة[٧] ؛ وسُجن العباس بن المأمون عند ما دعا إلى نفسه ، فمات فى الحبس[٨] . وحُبس الإفشين لما شق عصا الطاعة على الخلافة ، ولم يجدوا بداً من اتهامه بالزندقة ليقتلوه[٩] .

(ج) الديون والمصادرات

وكانت الديون والمصادرات تودى بصاحبها إلى السجن . وكثار من صودرت أموالهم وأودعوا السجون ، ثم أتى بهم فنوقشوا الحساب ، وطُلب منهم رد الأموال . حدّث سليمان ابن وهب قال : « كنت أنا والعباس بن الخصيب ، مع خلق من العمال والكتاب معتقلين فى يدى محمد بن عبد الملك فى آخر وزارته للواثق ، نُطالَب ببقايا مصادرات فقُبض علىّ وأودعت الحبس . فسمعت ليلة صوت الأقفال تُفتح فلم أشك فى أنه القتل وفُتحت الأبواب ... وحملنى الفراشون لثقل حديدى وحُملت إلى اسحق بن ابراهيم ، وكان صاحب الشرطة ، فإذا فيه صاحب ديوان الخوارج ، وصاحب ديوان الضياع ، وصاحب الزمام ، وبعض الكتاب . فطُرحت فى آخر المجلس . فشتمنى اسحق ابن ابراهيم أقبح شتم ، وقال : « يا فاعل ويا صانع تعرّضنى لاستبطاء أمير المؤمنين ؟ أين الأموال التى جمعتها وحبست بسببها ؟ فاحتججت بنكبة ابن الزيات . فقال لى صاحب ديوان الضياع : أخذتَ من الناس أضعافَ أضعاف ما أدّيت ، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ فأخذت ضياع السلطان وأقطعتها لنفسك وحزتها سرقة إليك ، وأنت تستغلها ألفى ألف درهم ، وتتزيّا بزىّ الوزراء »[١] .

وقد ذكر التنوخى كثيراً من أحاديث هؤلاء المسجونين لديون ومصادرات فليرجع إليه .

(د) الزندقة ، الشعوبية ، القرامطة ، الملاحدة ، الرافضة :

وكان الزنادقة يقتلون طوراً ويسجنون طوراً . وربما اتخذوا الزندقة سبيلا للقتل أو السجن . وكان الزنادقة يودعون سجناً خاصاً فى المطبق . ذكر أبو نواس قال : كنت أتوهم حمّاد عجرد إنما يُرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبست فى حبس الزنادقة فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم[٢] .

وقد سجن أبو نواس متهماً بالزندقة ؛ وكان قد عرّض بالأمين (صاحب التاج) واعتقد أن تعريضه هو سبب سجنه ، وأنهم جعلوا الزندقة سبباً . فقد قال :

وقد زادنى تيهاً على الناس أننى ... أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فلو لم أنل فخراً لكانت صيانتى ... فمى عن جميع الناس حسبى من فخر
فلا يطمعن فى ذاك منى طامع ... ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فقال له الأمين وقد أُتى به « أَبلَغَ بك الأمر إلى أن تعرّض بىّ فى شعرك يا ابن اللخناء ...؟ » ثم اتخذوا عليه حجة أنه زنديق ؛

(١) الفخرى ص ٢٢١
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٠
(٣) الطبرى حوادث سنة ٢٣٣
(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٠٥
(٥) الآداب السلطانية لابن طباطبا : ص ٠
(٦) المنتظم لابن الجوزى : ج ٦ ص ١٢١
(٧) الطبرى حوادث سنة ١٨٧ : ١١
(٨) البدء والتاريخ للبلخى : ج ٦ ص ١١٤
(٩) ابن الأثير : ج ٦ ص ١٩٠ ، والبلخى ج ٦ ص ١٢١

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ٤٣ .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٧١ .

قد شرب ماء المطر مع الخمر ، وقال : ها أنذا أشرب الملائكة ، فإن مع كل قطرة ملكا ... »[١] .

ومن الطريف أن نتابع القصة : فقد ذكروا أن خال الفضل ابن الربيع كان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم . وكانت فيه غفلة . فدخل على أبي نواس فقال : ما جرمك حتى حبست في حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟ فقال : معاذ الله ! قال أتعبد الكبش ؟ قال : ولكني آكله بصوفه ! قال : أفتعبد الشمس ؟ قال : والله ما أجلس فيها فكيف أعبدها ؟ قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله ، بل آكله ... ولقد ذبحت ألف ديك لأن ديكا نقرني مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا إلا ذبحته . قال : فلأي شيء حبست ؟ قال : لأني أشرب شراب أهل الجنة ، وأنام خلف الناس . فقال : وأنا أيضاً أفعل ذلك . فخرج خال الفضل إلى الفضل وقال له : ما تحسنون جوار الله ! تحبسون من لا ذنب له ؟ سألت رجلا في الحبس عن خبره ، فقال كذا وكذا ، وعرّفه بما جرى بينهما ، فضحك ودخل على الأمين فأخبره الخبر ، فأمر بتخليته[٢] .

وكان الشعوبيّون يسجنون لهجمهم على العرب ، وقد سجن الرشيد أبا نواس لقصيدة قالها وهجا العرب بها[٣] .

وحُبس فيما بعد ، محمد بن هارون الورّاق الملحد ، ومات في السجن ، وطُلب ابن الراوندي الملحد لسجنه ففر[٤] .

وسجن المقتدر رجالاً كثاراً من الدُعاة إلى القرامطة والذاهبين مذهبهم ، وسجن جماعة من الرافضة ، كانوا يجتمعون في مسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة[٥] .

(هـ) مخالفة رأى الخليفة ، ادعاء النبوة

وكان مخالف رأى الخليفة أو الوزير معرّضاً للسجن . وقد سُجن ألوف وقتل ألوف في محنة خلق القرآن . وكان أحمد بن حنبل ، الذى لم يقل بخلق القرآن ، أحد من سجنوا[٦] .

وكان المتنبئون يسجنون إن لم يقتلوا . وقد كثر التنبؤ في عصر بنى العباس وكان لأصحابه مع الخلفاء نوادر وأحاديث[٧] .

(١) الطبرى حوادث سنة ١٩٨ جـ ١١ ، والملح والنوادر ص ١٣٥ .
(٢) الملح والنوادر للحصرى ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(٣) حديث الأربعاء : ١١٣ .
(٤) المنتظم لابن الجوزى : جـ ٦ ص ١٠٢ .
(٥) المنتظم لابن الجوزى جـ ٦ ص ٢١٧ .
(٦) البدء والتاريخ للبلخى جـ ٦ ص ١٢١ .
(٧) مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٣٣١ ، وتاريخ بغداد لابن طيفور ص ٦٠ .

(و) المجون ، الفسوق ، الشراب

وكان المستهترون والفسّاق يسجنون حتى ينالهم العفو . وذكر ابن المعتز أن إسحق بن إبراهيم لما بلغه ما فيه أبو العبر من الخلاعة والمجانة أمر بحبسه . فكتب إليه أبو العبر رقعة يذكر أنه تائب ، ويسأله أن يخرجه من الحبس حتى يعلمه رقية العقرب فأحضره وقال : هات علمنا . فقال : إذا رأيت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فإنها لا تعود تتحرك ...

فضحك وقال والله إنه لا يفلح أبداً[١] .

وأمر المهدى إبراهيم الموصلي ألا يشرب ولا يتبذل ولا يغنى ، فغنى إبراهيم عند إخوانه وتبذل وشرب ، فضربه ثلاثمائة سوط ، وقيده وحبسه[٢] .

ووجد العسس أبا دلامة زيد بن جون سكران في بعض الليالى فقبضوا عليه ، وأخذوه فخرّقوا ثيابه وساجه وحبسوه . فلما أفاق قال أبياتاً وأرسلها إلى المنصور منها :

أمير المؤمنين فدتك نفسى ... علام حبستنى وخرقت ساجى
أمن صهباء صافية المزاج ... كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طُبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من النُّطف النضاج
أقاد إلى السجون بغير جرم ... كأني بعض عمّال الخراج[٣]

صلاح الدين المنجد

(يتبع)

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٦٢ .
(٢) الأغاني جـ ٥ ص ٥ .
(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ٢٠ .

الفسطاط

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

للأستاذ جمال الدين الشيال

يستطيع القارئ لأخبار الفتح العربي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن بابليون سبعة أشهر طوالا ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات ، وصبراً لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن في أيدي العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الأسكندرية فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ؛ وبسقوط العاصمة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م . تم فتح العرب لمصر فانتشروا في ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة

روى ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو ابن العاص لما فتح الأسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها ، هم أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » . فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، فكتب عمر إلى عمرو : « إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بيني وبينهم فيه شتاء ولا صيفا »(١)

قد تبعث هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين : إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقى بجنود المسلمين في مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء ، حتى لا يكون هذا الماء إذا حزبهم الأمر حائلا بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مدداً لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

وقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن حبيب أيضا أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالأسكندرية : « أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه ، فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الأسكندرية إلى الفسطاط »(١)

من هذا نرى أن رغبة عمر في أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن قاصرة على مصر ، بل كان يريدها أن تتوافر في كل الأمصار التي فتحها العرب ؛ ويقول فريق آخر من المؤرخين ، ومنهم المستشرق الإنجليزي Lane Poole في كتابه The Story of Cairo إن عمر لم يكن قد رسم لنفسه بعدُ خطة ثابتة لتكوين امبراطورية إسلامية واسعة ، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التي خرجت للفتح ، وإذ كان الطريق بين بلاد العرب والاسكندرية قابلا للانقطاع في زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الاسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين — أحدهما بالآخر — أنه ليس للرأي الثاني من القوة والصحة قدر ما للرأي الأول ، وذلك لأن النشاط الذي أبداه عمر منذ ولي الخلافة وإرسال الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس ومصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الإنجليزي لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلي فحسب .

لهذا أعرض عمرو عن الاسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط ؛ ولنا أن نتساءل مرة أخرى : لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟ وهنا تتشعب الآراء

(١) انظر المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددها لاتصل بنا إلى رأى حاسم معقول ، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم وابن دقاق والمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم يروون حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى لاختيار عمرو لهذا المكان ونزوله وجيشه بين ربوعه ؛ وغالبية المؤرخين الفرنجة : كبتلر ، ولين پول ، وكازانوڤا وغيرهم ؛ لا يهتمون بمناقشة الأسباب التى دعت عمراً لاختيار هـذا المكان دون غيره قدر ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة فى سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

وبرغم أنهم يستطرفون قصة اليمامة فأنهم يرجعون هذا الإسم إلى الكلمة الإغريقية Fossatum (أى المدينة) ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعا لما لكل من الأهمية ، ولذلك سنحاول :

أولا — مناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هـذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد إتمام الفتح العربى .

ثانيا — مناقشة الأسباب التى دعت لتسمية هـذا المكان بالفسطاط .

١ — أسباب اختيار المكاد :

أما عن الأمر الأول فيقول المقريزى فى خططه : « اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليـوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة »[١] .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأوا مدينتهم « الفسطاط » فى الفضاء المجاور لحصن بابليون — مقر الدفاع الرومانى — ؛ وهنا نجد اختلافا آخر بين المؤرخين بشأن كلمة « بابليون » فالبعض يطلقها على الحصن فحسب والبعض الآخر يقول بوجـود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الإسم ، وزعيم الفريق الثانى هو الدكتور بتلر ، وقد لخص رأيه فى هذه الفقرات .

١ — كانت تقوم فى زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية مثل « سرية أبى الهول » the Doxy of the Sphinx ؛ وأن بعضاً من هذه التماثيل بقى حتى زمن الخليفة الحاكم الفاطمى[١] .

٢ — وفى القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم فى هذا المكان معسكراً حربياً وأنشأوا هناك حصنا على المرتفعات الصخرية التى سماها العرب فيما بعد « الرَّصَد » .

٣ — ومن هـذا المعسكر انتشر اسم « بابليون » حتى شمل الإقليم المجاور وأصبح الإسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيداً شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك « هليوبوليس أو عين شمس » .

٤ — وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عنـد رأس الدلتا واعتزم أن يبنى حصناً قوياً كقلعة لبابليون ، ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطىء النيـل وذلك ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته ولتستطيع تلك الحامية الاتصال بواسطة النيل بسائر جهات القطر المصرى وسمى هـذا الحصن بحصن بابليون (أى حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر Castle of Khemi وقد حرّف العرب هذا الإسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ — وبذلك هجر حصن الرصد الفارسى واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربى بعد ذلك بخمسة قرون ونصف قرن كانت الأخبار عن وجوده عامة لا تكاد تذكر .

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ صـ ٩٠ مطبعة النيـل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١) يذكر ابن دقاق فى كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ صـ ٢١ — ٢٢ بولاق ١٣٠٩ هـ عند كلامه عن الأزقة التى كانت بالفسطاط « زقاق الصنم » ويقول انه سمي بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى سرية أبي الهول وقد هدمه الأمير بلاط سنه ٧١١ هـ ؛ ويؤيد بتلر فى رأيه أيضاً ما رواه ابن الفقيه فى كتابه البلدان صـ ٦٠ عن وجود تمثال آخر من الحجر لامرأة كان بالفسطاط ؛ وما رواه المقـدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » صـ ٢١١ ليدن سنة ١٨٧٧ إذ يقول « وفى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر ... الخ هذا وقد عثر أخيراً على قطع من الحجر فى حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفى وقد نقلت إلى دار الآثار المصرية .

٦ — أن اسم بابليون الذى وجده العرب عند قدومهم يطلق على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن وحل مكانه الإسم العربى الجديد « الفسطاط » حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم « بابليون » قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التى أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط .

٧ — ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى فى مصر فى الأزمنة الحديثة وغادر الإسم الأنقاض الباقية من قصر الشمع ؛ وتضاءل حتى غدا يطلق على دير قبطى صغير يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى « دير بابليون » وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الإسم التاريخى القديم بعد أن خلفه فى تسمية المدينة « لفظ الفسطاط » وبعد أن خلفه فى تسمية الحصن لفظ « قصر الشمع »[١] .

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذى أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن ؛ اتخذها البابليون مكاناً لاستقرارهم ثم اتخذها الرومان مقراً لدفاعهم يصلون به الوجهين البحرى والقبلى ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأى الذى نريد أن نذهب إليه من أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان : إحداهما الاسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولإشرافها على البحر الأبيض المتوسط ، وبابليون أو « مصر » وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى ، ولوقوعها على شاطىء النيل بحيث تكون سهلة الاتصال — بوساطة هذا النهر — بكل أطراف القطر المصرى ، ولتوسطها بين النيل غربا (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقا — وهو حد طبيعى لحمايتها — ؛ ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقراً لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها[٢] فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة ، وكانت هليوبوليس (عين شمس) كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة[١] ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين[٢]

(١) Butler, Babilyon of Egypt, P. P. 62, 93. , 1914 .

(٢) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته صـ ١٩٠ — ١٩١ القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ عما « تجب مراعاته فى أوضاع المدن » .

ويؤيد هذا الرأى القائل بوجود هذه المدينة أيضا قول المقريزى : « وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع المتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الإسلام بالحمراء »[٣] ؛ وقول ابن سعيد فى كتابه المغرب : «وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى عين شمس ، وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن »[٤] لأننا نعرف أن المعابد عامة — من هياكل وبيع وكنائس وأديرة ومساجد — منذ أقدم العصور إلى اليوم لا تبنى إلا فى المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ؛ فوجود هذه الكنائس والديارات فى الأماكن التى يذكرها المقريزى يثبت إثباتا قاطعا وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة القديمة وقت الفتح ؛ وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج إذ يقول فى عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام « وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن » .

من هذا كله نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطاً ، بل كان اختياراً طبيعياً ؛ كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهداً جديداً فى إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته فى اتخاذ الاسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : « مساكن قد كفيناها »[٥] ؛ ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الاسكندرية ، فكان لزاماً على عمرو

(١) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان : (العسكر سنة ١٣٣ هـ والقطائع سنة ٢٥٦ هـ والقاهرة سنة ٣٥٨ هـ)

(٢) يعين ابن الفقيه فى كتابه (البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين فى قوله « وعين الشمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ، ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ » ؛

(٣) المقريزى . المرجع السابق ص ٦٠ .

(٤) نفس المرجع صـ ٦٢ .

(٥) نفس المرجع صـ ٧٥ — ٧٦ .

أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهى « بابليون » أو « مصر »[1] فذهب إليهـا واتخذ الفضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده .

هذه هى الأسباب الطبيعية التى دعت عمراً لاختيار هذا المكان غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتماماً مؤرخو الفرنج

١ — لم سميت المدينة بهذا الإسم :

أما عن الأمر الثانى وهو الأسباب التى دعت لتسمية هـذا المـكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حد حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمـدون جميعاً على قصة اليمامة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الـكلمة الإغريقية Fosstatum أى المدينة وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام . غير أنا نرى أن قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة وذلك لأنهم يقولون أن عمراً قد أوصى أحد المصريين فى رواية ، أو صاحب القصر فى رواية أخرى بالمحافظة على الخيمة « الفسطاط » حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها ، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط فى مكانه فنزل هو وجنده بجواره ؛ ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن عمرا ولو أنه كان قد استولى على حصن بابليون فإن مصر لم تـكن قد خضعت كلها لأمره ، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المـكاف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه قد أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذى استنفده عمرو فى فتح الاسكندرية ، وما بين بابليون والاسكندرية من مدن

ويدفعنا أيضاً إلى الشك فى صحة هذه القصة ما هو معروف مشهود عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنهـا تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدى صوناً للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار .

(١) زيادة فى الايضاح انظر St. Lane - Poole ، Ahistory of Ehypt in the middle Ages, P. 3, London, 192.

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة العمْرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها فى معسكر دائم النشاط دائب الحركة وفى خيمة القائد وهى أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين ؟

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففى أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها ؟ والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهى منحدرة الجوانب إذا نصبت[1] .

كل هذا يؤيد شكنا فى صحة هذه القصة وكونها أصلا للتسمية

أما الرأى الثانى فيبدو كذلك بعيداً عن الصحة وذلك لأن ابن قتيبة يروى فى كتابه غريب الحديث حديثاً للرسول نصه : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة »[2] ؛ ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين : إما أن يكون الحديث صحيحا فيبطل الرأى القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم فى حروب الشام لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وبالتالى بعد ذكره لهذا الحديث ؛ وإما أن يكون الحديث غير صحيح وبذلك يحتمل أن يكون رأى مؤرخى الفرنجة صحيحا .

غير أنا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة : وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة ، فإننا إذا رجعنا إلى قاموس المحيط وجـدنا أن « الفسطاط » بالضم « مجتمع أهل الـكورة » ووجدنا أن الـكورة هى « الصقع أو المدينة » وبذلك تكون الفسطاط هى مجتمع أهل المدينة .

ويقول ابن قتيبة تعقيبا على الحـــديث السالف الذكر « والفسطاط المدينة »[3] . وينقل عنه المقريزى أيضا فى الخطط

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً ؛ انظر مثلا : المقريزى . المرجع السابق ص ٧٦ ، وابن دقماق المرجع السابق ص ٢ ، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ابريل سنة ١٨٤١ ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤ — ٦٥ ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ... الخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التى تنسب لعهد الفتح وخاصة قصة الفتاة التى كانت تقدم ضحية ليفيض النيل والخطاب الذى أرسله عمر ليلقى بدلا من الفتاة .

(٢) انظر أيضاً ياقوت ، معجم البلدن .

(٣) ابن دقماق ، الانتصار ج ٤ ص ٢ .

ما يلي : « قال ابن قتيبة كل مدينة فسطاط » ، ويقول المقريزي بعد هذا : « وأخبرني أبو حاتم الأصمعي أنه قال حدثني رجل من بني تميم ، قال قرأت في كتاب رجل من قريش : هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط يريد البصرة »(١) ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه : « وإنما سميت البصرة فسطاطا على التشبيه بفسطاط مصر »(٢)، وقريب من هذا المعنى قول المقدسي : الفسطاط هو مصر في كل قول »(٣)

فالراجح عقلا بعد ذكر هذه الآراء جميعا أن كلمة « فسطاط » كلمة عربية خالصة معناها « المدينة » .

وخلاصة القول الذي نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختياراً للأسباب السابق ذكرها وأنهم سموه « الفسطاط » أي « المدينة » أو « مجتمع أهل المدينة » يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم .

جمال الدين الشيال

(١) المقريزي ، المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .
(٢) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ص ٦٧ .
(٣) المقدسي ، المرجع السابق ص ١٩٧ .

عرب السودان والصحراء الشرقية

للأستاذ حسن أحمد حسين خليفة

كتب جماعة من المستشرقين وبعض الكتاب كتابة خاطئة عن أنساب بعض عرب السودان والصحراء الشرقية ، فجاء في محاضرة دخول العرب للسودان التي ألقيت في الجمعية الجغرافية الأسيوية منذ سنوات قليلة ما ملخصه : « إن معظم سكان الجزء الشمالي من السودان على ضفاف النيل يدعون أن نسبهم يتصل ببني العباس ، غير أن هذا محض ادعاء لم تثبت حقيقته بعد »

وزعم نعوم بك شقير صاحب كتاب « تاريخ السودان » : « إن انتساب عرب السودان للأصول التي ينتمون إليها ، لا ثبت له عندهم إلا ما حفظوه أو لفقوه من القصص الخرافية » .

ونسب المستشرق شوينفرث في كتابه « طرق مصر المهجورة » العبابدة والشكرية وغيرهم من قبائل الصحراء الشرقية للبجة ؛ وقال : « إن العبابدة تعربت كثيراً والشكرية تعربت »

ونسب البستاني صاحب دائرة المعارف ، والمستشرق بروس العبابدة للبجة ، وزاد نعوم بك شقير على ذلك بقوله : إن في تقاليد العبابدة أنهم قوم الزبير بن العوام ، ولعل قوم الزبير اختلطوا بهم فكانوا رؤوسهم . وإلى هنا نكتفي بهذا القدر من مزاعمهم ونرد عليها : بأن من الثابت في التاريخ أن فريقاً من بني العباس هاجروا من الديار المصرية إلى السودان في القرن الثامن الميلادي(١)

وإذا كان من صفات عرب شمال وشرق السودان والصحراء الشرقية تلفيق الأنساب ، فإن فيهم الجباب(٢) من نسل أبي لهب والزيديين(٣) من نسل اليزيد ، فكان أحرى بهؤلاء أن يلفقوا لهم نسباً غير نسبهم

أما تلك القبائل التي نسبوها للبجة ، فهي قبائل عربية صميمة فالعبابدة في الأصل فرع من الكواهلة بني محمد الكاهل بن عبد الله المكنى بأبي بكر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي ويحدثنا الرحالة ابن بطوطة في كتابه « تحفة النظار وعجائب الأمصار » أنه رأى في نحو سنة ٧٥٧ هـ حياً من العرب بصحراء عيذاب (عتباى) على بعد يومين من رأس دواير يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم ا ه

وإن كاهلا الذي أشار إليه ابن بطوطة هو محمد الملقب بكاهل الذي يرجع إليه العبابدة وقبائل أخرى في نسبهم .

وجاء في كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندي ، و« البيان والإعراب » للمقريزي من مؤرخي القرن التاسع الهجري ما ملخصه : « إن السيدة فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب التي أمها السيدة أم كلثوم بنت السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب هي أم يحيى وأبي بكر بني حمزة بن عبد الله بن

(١) كتاب قبائل العرب في مصر للأستاذ أحمد لطفي السيد .
(٢) المقصود بهم قبيلة الجباب التي تقيم في جهات طوكر وعقيق وعدوبنة ورأس كسار وقارورة وأرتاريا .
(٣) المقصود بهم الزيديون من بني اليزيد بن معاوية وهم جماعة متفرقة في بعض بلاد الرباطاب والجعليين .

الزبير بن العوام وأم ابراهيم بن طلحة الجود ، وإن السيدة زينب ولدت لعبد الله بن جعفر أولاداً عرفوا بالزيانبة هم جعافرة الصعيد ، ومن هذه الأخوة كانت بنوطلحة وبنوالزبير والجعافرة يداًواحدة فى صعيد مصر » . وها أنت ترى اليـوم فى القرن الرابع عشر الهجرى العبابدة بنى عبدالله المكنى بأبى بكرالزبيرى يقيم أكثرهم مع الجعافرة فى صعيد مصر بمديريتى أسوان وقنا ، ومختلطين معهم فى جميع سبل الحياة كما كانوا فى القرن التاسع الهجرى

أما ذلك الحى من أولاد كاهل الذى رآه ابن بطوطة فى رحلته بالصحراء الشرقية ، فيلوح لنا أنه رحل من صعيد مصر إلى تلك الصحراء عند تفرق العرب عقب حوادث سنة ٦٥١هـ التى حصلت بين حصن الدولة الجعفرى زعيم العرب بالقطر المصرى ، والملك المعز ايبك أول ملوك دولة المماليك البحرية كما تراه مفصلا فى كتاب السلوك للمقريزى

ورب قائل يقول : إن بعض مؤرخى القرن التاسع الهجرى بينوا فى مؤلفاتهم أسماء القبائل العربية وأماكنها بالديار المصرية فى عصرهم ولم يذكروا العبابدة . فجوابنا على ذلك هو أنهم لم يشتهروا باسمهم الحالى إذ ذاك[1] ؛ وقد اشتهروا به فى القرون الأخيرة كما اشتهر فى القطر المصرى والسودان وغيرهما من الأقطار عدة قبائل عربية بأسماء غير التى كانت تعرف بها أصولها فى القرن التاسع الهجرى وما قبله من القرون ، ومن المعلوم أنه كلما مر الزمن كثرت القبائل وتعددت أسماؤها

والشكرية عرب من خيار العرب ، وهم من آل شكر بن إدريس ، ويتصل نسبهم بالسيد عبد الله الجواد ، كما جاء فى نسخة خطية منسوبة للامام السمرقندى

ومن المعلوم أن كثيراً من العرب الذين ينتمون إلى تلك الأصول التى ينتمى إليها عرب السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة أتوا إلى القطر المصرى عند الفتح الإسلامى وفيما بعده من العصور ، وإن الكثير منهم هاجر إلى الصحراء الشرقية وبلاد النوبة والسودان ، وخصوصاً فى زمن حكم المماليك الذين أذلوا العرب واضطهدوهم فى الديار المصرية

(١) اشتهروا أخيرا بهذا الاسم نسبة إلى جدهم عباد الصغير الذى يتصل نسبه بالزبير بن العوام فى الجد الرابع عشر .

وإن عرب السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة يحفظون أنسابهم التى توارثوها عن أسلافهم . وقد جاء فى القول المأثور : « إن الناس مصدقون فى أنسابهم » . وهذا ثبت كاف لهم ، وعلاوة على ذلك فإنهم يتكلمون باللغة العربية إلا بعض قبائل فى الصحراء الشرقية ، وبلاد النوبة تعد على أصابع اليد ، اتخذت البجاوية أو النوبية لغة لها بحكم البيئة التى وجدت فيها

ومما نأسف له أن بعض كتاب مصر النابهين ممن ظهروا أخيراً وهم أحق بمعرفة السودان وسكانه من أولئك المستشرقين وغيرهم كتبوا عن أنساب قبائل السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة متأثرين بأقوال المستشرقين والسوريين الخاطئة ، لا كتابة من يعرف سكان تلك الجهات معرفة درس وتمحيص أعمق وأصح من الأساطير والمعلومات المتناثرة التى وضعها المستشرقون وكتاب سوريا ، وهى أقوال لا تستند إلى أى ثبت وإقامة تلك القبائل فى إقليم كان يسكنه فى القرون السحيقة أقوام ليسوا من العرب ، وإليك نبذاً من أقوال بعض كتاب مصر فى هذا الموضوع :

قال على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية : « يظن أن عرب العبابدة من البجة » . وقال الأستاذ البتنونى فى كتاب « الرحلة الحجازية ما ملخصه : « يقال إن البهجة من عرب البربر ومنهم المشاباب ، وهم نخذ من العبابدة ، ويقيم أناس من المشابات فى اللقيطة بين قفط والقصير » . وقال الدكتور مأمون عبد السلام فى مقالة نشرتها له جريدة الأهرام فى سنة ١٩٣٩ م ما ملخصه : « إن جغرافيى العرب وصفوا الصحراء الشرقية وتكلموا عن سكانها من البجاة ، وهم البشاريون وأقرباؤهم العبابدة ، فذكرهم المسعودى وابن الأثير والمقريزى »

وأقوالهم هذه لا صحة لها ، فالظن ليس حجة ، وإن عبابدة عرب البربر هم نخذ من قبيلة هواره ، وقد ذكرهم القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ، ويقيمون فى الوجه البحرى بالديار المصرية ، ولا تربطهم أى صلة نسب بالعبابدة بنى الزبير ممن يقيمون بصعيد مصر والصحراء الشرقية والسودان . وإن جغرافيى العرب الذين أشار إليهم الدكتور مأمون عبد السلام لم يذكروا البشاريين والعبابدة بين قبائل البجة التى وضحوها فى مؤلفاتهم التى اطلعنا عليها

وممـا لا شك فيه أن هناك من تعرب من سكان السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة القدماء ، واندمج اندماجاً كلياً في العرب ، وأنه تجرى في عرب هذه الجهات حفنة من دم غير عربي ، لأنه من عادة العرب أن يتزوجوا من أهل البلاد التي يحلون فيها ويتسررون ، وهذا لا يؤثر في عروبتهم ، لأنه من عاداتهم أيضاً أن لا يزوجوا بناتهم لغير بني جلدتهم ، مع أن سكان الأقطار الأخرى لا يتمسكون بهذه العادة ، وليس عرب السودان وحدهم الذين تجرى في عروقهم حفنة من دم أجنبي ، فإن عرب الأقطار الأخرى هم بالمثل تجرى في عروقهم دماء غير عربية ، وقل أن يوجد الآن على وجه الأرض أمة لم تختلط أصولها ، إذ لا جدال في أن شعوباً غير عربية وجدت أومرت بسوريا وفلسطين والعراق واليمن ووادي النيل في القرون الخالية ؛ ولـكن بمرور الزمن صهرت بقاياهم في بوتقة العروبة ، وذابت في الأمة العربية الحديثة ، وهذا لا يضيرهم في عروبتهم ، فإن كل من كان لسانه عربياً فهو عربي وقد منح الإسلام الجنسية العربية لـكل من تكلم بالعربية ، فقد روى الحافظ ابن عساكر قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي فقال : الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني أنهم نصروا النبي لأنهم قومه) ، فما بال هذا وهذا ؟ ... فسمع النبي صلى الله عليه وسلم بمقالته ، فقلم مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى الصلاة جامعة (فاجتمع الناس) . وقال محمد صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية ، فهو عربي »

أما قبائل البجة التي ذكرها جغرافيو العرب كالمسعودي والمقريزي وغيرهم فهي :

البازه والباريه والخاسه والحدارب(١) والزنافج .

وإن منطقتهم كانت تمتد قديماً في شرق أفريقيا من صحراء قوص بالقطر المصري إلى بلاد الحبشة ، وعاصمتهم كانت مدينة هجر(٢) ، وفي وقتنا الحاضر يقيمون في القسم الجنوبي من تلك المنطقة

(١) الحدارب : هم صفوة القوم

(٢) هجر : جبل شاهق جداً فيه كهوف ومغاور لا تحصى ، وهو على مسيرة يومين من مدينة « كرن بارتريا »

وممـا جمعناه من المعلومات الصحيحة في مدة إقامتنا عدة سنوات بالسودان الشرقي وجبال بني عامر ، إنه لـما كثر العرب من بني الزبير بن العوام بصحراء مصر الشرقية في القرون المتأخرة وقويت شوكتهم وكثرت أنعامهم ، ضايقوا البجة في أماكنهم بتلك الصحراء(١) بسبب شح الأمطار وقلة المراعي التي لا تكفي هناك لسائمتهم جميعاً ، فاضطرت البجة تحت ضغطهم للرحيل إلى الجنوب شيئاً فشيئاً ، وأقامت في الجبال التي حول سواكن ، وبعد ذلك حاربها الهدندوة وقتل رئيسها أحمد باركوين : شكتيل ملك البجة ، وهو من قبيلة بلي العربية ، إذ كانت رئاسة البجة لبلي وتسميهم البجة بلويب ، ويقال لهم حدارب ، وإن وجود بلي في الصحراء الشرقية يرجع إلى زمن بعيد ، فإن التاريخ يحدثنا أن قبيلة بلي كانت تقيم في شمال منطقة البجة على عهد ظهور النصرانية بالقطر المصري ، حيث يقيم الآن بعض عرب العبابدة ، وتدل القرائن التاريخية أن بلي هي أول قبيـلة عربية خالطت البجة ، لأنك إذا سألت البجاوي : هل تعرف العربية أجابك (بلويه كاكا) أي لا أعرف لغة بلي ، وكان الحدارب يتولون التجارة بين السودان الشرقي والحجاز واليمن ، فزاحمتهم قبيلة الارتيقة(٢) في التجارة ورئاسة القوافل ، وانتزعتهما منهم في الخمسة قرون الأخيرة ، وأصبح اسم حدربي خاصاً بالارتيقة .

ولما قتل شكتيل ملك البجة المار ذكره دفن في شمال مدينة سنكات بالجبل المسمى باسمه ، وعلى أثر ذلك رحلت البجة من الجبال التي حول سواكن ، وأقامت مع بقية البجة في المنطقة من عند مدينة طوكر شرقاً ، حتى قرية الشيخ الإمام بديار الحبشة غرباً . وجبل هجر ونهر عنصبا (عين سبأ) بارتريا جنوباً . وشمالا بحور بركه الذي يروي أراضي طوكر

وإن قبائل البجة التي تقيم الآن في السودان المصري الإنجليزي هي :

اللبت والكربكناب والسنكاتكنات(٣) ، وفريق من الخاسه

(١) قسم الشمالي من منطقة البجة .

(٢) وهم من الحضارم الذين هاجروا إلى السودان عن طريق البحر الأحمر .

(٣) وهم الذين كانوا يسمون قديماً بالزنافج .

هــــذا العالم المتغير

كثرة الأكل قد تسبب السرطان

للأستاذ فوزي الشتوي

منذ ٣٠٠٠ عام:

يفتك مرض السرطان بستين في المائة من ضحاياه في أرقى الأمم التي تهتم بعلاجه ودراسته . أما في مصر فلا يعرف عدد المصابين به إلا الله . فإن لم يكن الطبيب على شيء من البراعة فربما اعتبره نوعاً من الأورام. تستطيع أن تتعقب المرض إلى ٣٠٠٠ سنة ، ومع ذلك فما يقال عنه ضرب من الفروض والتخمينات ، رغم مايبذل من المال لدراسته ، ورغم الإخصائيين الذين وقفوا حياتهم وخبرتهم لكشف سره

فإن أردت أن تعرف مدى سبر غور العلم لطلاسمه ، فلست أجد أوفق مما كتب الدكتور هارولد رش مدير معهد أبحاث السرطان في إحدى كليات الطب بأمريكا حين قال : « ليس لدينا علاج محقق للسرطان . وليس في جعبتنا واحد يفكر في تنفيذه وإن كنا نتوق إلى ما يضيء لنا الطريق ، وكل عملنا يتجه إلى دراسة المظاهر الأساسية والعوامل التي يحتمل أن تغير مجراه »

« ومع هذا فقد ظفر بتقدم واسع شامل ، فعرفنا عدة وسائل لإحداث السرطان في المعمل في أي وقت نشاء ، وعرفنا أيضاً بعض التحولات التي تطرأ على أنسجة الجسم العادية حين تصاب بالسرطان »

يبدأ كرأس الدبوس

وليس معنى هذا أن الطب يقف أمامه مكتوف اليدين، فأربعين في المائة من مرضاه تعالج بالعمليات الجراحية وبأشعة إكس وبالراديوم وبغير هذه العلاجات يقضي بالموت على كل المصابين به ، فهو ذلك المرض الغريب الذي يبدأ بورم صغير كرأس الدبوس ، ثم ينمو

ويتبعون في وقتنا الحاضر لنظارة بني عامر . ويوجد من بقايا البجة أقليات في قبائل عرب البشارين والأمرار والهدندوة والحباب ، وهم معروفون لتلك القبائل

ويتكلم عرب البشارين(١) والأمرآر(٢) والهــدندوة(٣) والحلنقة(٤) بلغة البجة(٥) بتأثير البيئة ، لأنه لما نزل في إقليم البجة العرب الذين تكونت منهم تلك القبائل ، اضطرت بحكم الجوار والإقامة بين البجة لمخالطتها في جميع سبل الحياة ، وزد على ذلك أنهم كانوا يتزوجون من البجة فينشأ أولادهم وبناتهم على لغة

(١) يرجع نسب قبيلة البشارين إلى محمد بن وراق من نسل مصعب بن الزبير بن العوام .

(٢) يرجع نسب قبيلة الأمرآر إلى محمد بن وراق من نسل مصعب بن الزبير بن العوام ويرجع نسب بعضهم إلى العبدلاب القواسمة .

(٣) يرجع نسب قبيلة الهدندوة إلى بني العباس وأبي بكر الصديق والتكارنة .

(٤) ويرجع نسب قبيلة الحلنقة إلى قبيلة هوازن .

(٥) من القبائل العربية التي أثرت فيها البيئة وأصبحت تتكلم بلغة البجة قبيلة الأرتيقة وهم من عرب حضرموت . وقبيلة الكميلاب وهم من بني مصعب بن الزبير . وقبيلة ادقي وهم من بني العباس وبعض الأشراف الذين يقيمون في شرق السودان والصحراء الشرقية

أمهاتهم ، فتغلبت البجاوية مع مرور الزمن على العربية كما تغلبت اللغة النوبية على العرب والترك الذين أقاموا بجهات دنقلة وشمالها. وتتكلم قبيلتي بني عامر(١) والحباب(٢) بلغة يسمونها الخاساويه ، وهي خليط من لغة التفري الحبشية واللغة العربية . ولم يبق لهذه القبائل العربية الأصل ما تختلف فيه عن قبائل البجة إلا العادات ، ولذلك يحسبهم بعض المستشرقين والكتاب بجاة لتكلمهم بلغة البجة وإقامتهم في إقليمهم . وهذا خطأ لايتنبه إليه إلا من يتصل بهم ويجتمع بمن له معرفة منهم بحوادث قبيلته التاريخية ولا تخلو قبيلة من هؤلاء

ولا يفوتنا أننا لم ندل بمعلوماتنا هذه إلا إظهاراً للحقيقة ، فالناس كلهم سواء ، وإن التفضيل بينهم بالفضل والتقديم بالفعل: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(بربر بالسودان) **حسين أحمد حسين خليفة العبادي**

(١) يرجع نسب قبيلة بني عامر إلى الجعليين وأبي بكر الصديق وهذه القبيلة تضم الكثير من البجة .

(٢) يرجع نسب قبيلة الحباب إلى أبي لهب

ويتشعب وينتشر حتى يفسد الجسم كله . ويتفق الأطباء والجراحون على أنه كلما بكر المريض بعلاجه كان النجاح أكثر ضماناً

أما سر التبكير فى العلاج فيرجع غالباً إلى طبيعة المرض الذى يتكون من خلايا حية تختلف عن الخلايا العادية فى أنها حرة طليقة لا يحد من نموها أى ضغط . وعندما توجد خلية سرطان فى جسم الإنسان أو الحيوان فإنها تنقسم وتتوالد فى سرعة فائقة لا تحدها أية عقبة . فإن كثر عدد الخلايا وكبر حجمها انقسمت وسبحت شظاياها فى جسم العائل لتكون كل منها مستعمرتها الخاصة ، وعندئذ يتعذر على الطبيب إجراء العلاج

فما هى الخلية السرطانية ؟

سؤال يعز على العلم الجواب عنه ، وكل ما يقول إنها أصغر من أن يراها المجهر . ويواصل العلم جهوده ليعرف هذه النكبة التى لا يراها المجهر ، وليدرك كيف تتكون فى الجسم

وتنقسم دراسة السرطان فى إحدى الهيئات التى وقفت جهودها ومالها على إزاحة الغطاء عنه إلى ثلاث شعب :

أولا : تأثير الغذاء على السرطان فى نموه أو عرقلته

وثانياً : تأثير التهيج الزمن على تكوين السرطان

ثالثاً : خواص الخلية السرطانية

وفى عام ١٩٤٠ بدأ العلماء يدرسون الصلة بين التغذية وتكوين الخلايا السرطانية على الفيران ، فلاحظوا ظهور أورامها فى حالات كثيرة فى الفيران التى يحتوى غذاؤها على نسبة كبيرة من الدهن

ولكى يحددوا بالضبط تأثير التغذية على قابلية الفيران للاصابة بالمرض أحضر العلماء بضع مئات من الفيران وقسموها إلى فريقين فيعطى الفريق الأول غذاء يولد نسبة مرتفعة من الوحدات الحرارية (يتحول كل غذاء يتناوله الكائن الحى إلى وحدات حرارية هى فى الواقع الوقود الذى يسير أجهزته وتختلف القيمة الحرارية باختلاف ألوان الطعام)

هذا التهيج :

ويعطى الفريق الثانى وجبات غذائية مماثلة لوجبات النوع الأول ، ولكن كميتها الحرارية تبلغ ثلثى وجبات الفريق الأول . وكان الفريقان يعرضان للأشعة فوق البنفسجية للاسراع فى تكوين الخلايا السرطانية وتحديد مؤثراتها

وبعد تسعة شهور من التجارب أجرى الكشف الطبى على الفيران ، فوجدت الأورام السرطانية منتشرة فى الفريق الأول بنسبة ٨٦٪ ووجدت فى الفريق الثانى بنسبة ٧٪ فقط

ويقول الدكتور روش إن هذه النتيجة تتفق مع أبحاث الهيئات الأخرى ، إذ ظهرت الإصابات السرطانية فى صدر الفيران التى تتغذى بكميات مطلقة بنسبة ٦٧٪ ، ولكنها لم تظهر بتاتاً فى الفيران المحدودة الوحدات الحرارية فى الغذاء .

ويعلل هذه النتيجة بقوله : « عند ما يحتفظ الجسم بمستوى مرتفع من الغذاء ، فإنه يتيح الفرصة للخلايا السرطانية الكامنة لكى تظهر وتنمو ، بخلاف حالات قلة الغذاء التى تعد غير مناسبة لبدء حالة التورم السرطانى ولا تعطيها الفرصة لكى تبدأ عملها ، وبمجرد ظهور الخلايا السرطانية وبدئها عملها ، فإن قلة الغذاء أو كثرته تكون عديمة القيمة ولا تحد من نشاطها وتكاثرها » .

ولا يدل نجاح هذه التجارب على الفيران أنها ستؤدى إلى ذات النتيجة فى الإنسان ، ولكن الدكتور روش يرى ما يؤيد هذه النظرية فى ارتفاع نسبة إصابة الإنسان بالسرطان فى المناطق الوافرة التغذية وبين الأشخاص الثقيلى الوزن والأكولين

تأثير الفيتامينات

وتجرى الآن التجارب لمعرفة تأثير الفيتامينات من حيث القلة والكثرة على الخلايا السرطانية . كما يجرون تجارب التهيج الزمن ، ويفحصون تأثيره على ظهور عوارض هذا المرض . والمعروف أنه توجد علاقة بين تكوين الخلايا السرطانية وبين التهيج

ودلت التجارب الأخيرة على أن التهيج لا يؤدى إلى إحداث السرطان إلا إذا حدث فى المناطق التى تحتوى على خلايا سرطانية كامنة

ويفهم من التجارب التى أجريت على السرطان أن عدة عوامل متباينة تلعب دورها فى نشوئه ، فالتهيج وحده لا يسببه ، ولكن هناك أفراد لديهم استعداد للاصابة به . وهو كامن فيهم سواء بالوراثة أو بعوامل أخرى لا تزال مجهولة ، والإكثار من الأكل عند أولئك الناس يعطى المرض فرصة الظهور

تثبيت المرض

والخلاصة التى وصل إليها الباحثون فى الكشف عن أسرار هذا المرض الخبيث أنه يحتاج إلى عدة عوامل متباينة متآزرة ، تعمل كلها فى وقت واحد ، فالتهيج يجب أن يصحبه الاستعداد للمرض . والتهيج يجب أن يحدث فى أجزاء بها خلايا كامنة ،

حــلم قديم . . .

للأستاذ سيد قطب

طاف بى مستطلعاً حلمى القــــديم
فتطلعت إليـــــه فى وجــــوم
قلت : من أنت ؟ فأغضى خجلا
قال لى : حلمك فى العهد الوسيم !

قلت : يا حلمُ . متى عهدىَ ذاك ؟
منذُ كَمْ يا حلمُ قد طافت رؤاك
قالَ : لم يبعُدْ بأطيافى المــــدى
قلت : ما أبعـــد ما مرّت خطاك

شَدّ يا حلمىَ ما قد حالَ حتّى ؟
شَدّ يا حلمىَ ما أنكرت نفسى !
أترَى ذاك الذى تعرفــــه ؟
قال : ما تبصر عينى غــير رمس !

ومضى عــــنى فى يأسٍ عقــــيم
سادرَ الخطوة فى الأرض يهـــيم
قلتَ : يا حــــلمىَ تمضى مفرداً
ليس فى الرَّمْـسِ سوى قلب رميم !

وبغير هذا التعقيد فإن هذا المرض كان جديراً بأن يبيد العالم كله منذ زمن بعيد .

ونجح العلماء أيضاً فى الوصول إلى علاج لسرطان الجلد ، إذ وفق الدكتورموهز إلى ربط العلاج الكيميائى بالجراحة ، فأمكنه أن يثبت المرض فى بقعته فلا يزوغ من بين يدى الجراح عند ما يحاول إزالته بمشرطه كما هى العادة ، فالسرطان من الأمراض التى يعزعلى الأطباء حصرها لكثرة حركته

وخير نصيحة يوجهها الدكتور روش إلى الناس ليتقوا هذا المرض الخبيث المجهول الأصل والنشأة :« أن نكون سليمى البنية ، نقتصر على طعامنا الضرورى ، مبتعدين عن التهييج ، على أن لا ننسى فحص أجسامنا فحصاً تاماً فى كل فترة **فوزى الشتوى**

أطيــاف . . . !

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

« لا تفتأ هذه الأطياف تخادع أوهام الشاعر فترده إلى الماضى البعيد يحلم ؛ ويأمل ؟.. ولكن هيهات ؟ ؟ »

حالمٌ بالمــــنى ؛ تُراهُ يُفيقُ ... وَيحه لَفَّهُ سُباتٌ عميق ؟!
غفوةُ الحلم ، يقظة الأمس ولىَّ ... موعداً يُرتجى ، وذكرى تشوق
طالَ فى ظلمة من الشكِّ نومى ... فمتى يمسحُ الظلامَ الشروق

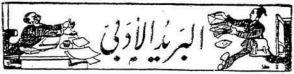
أشرقى تُشرق الحياة ، وتصفو ... من دُجاها ويستبينُ الطريق
أنا أشتاق ومض عينيك تسرى ... فى دمى صَيْحةٌ له وخُفُوق
أين همسُ الجفون وهى غوافٍ ... طالمَا هزّنى بهنَّ بَريق ؟
أين مِنى الحديثُ نجوى شفاهٍ ... تَتلظَّى كما تلظَّى الحريق ؟
أين منى الثّقافةُ ، من معانى العُجْب فيها ، معنى كريم عريق !
أين منى اشاءة تبهر العين ؛ وفى الغُصْن شرُّها مرموق
أين أيامُكِ التى قد تولّتْ ... بِمعَانٍ من الحيَاةِ تروق ؟

لا تظُنّى الأيامَ تمضى بعهدى ... ستطولُ الأيامُ ، وهو وثيق
كلمّـــا مرّتِ اللّيالى عليه ... كانَ كالخمر زانها التعتيق

أشرقى تُشرق الحياةُ ، وتصفو ... من دُجاها ؛ ويستبين الطريق
فَرَغَتْ كأسِى التى ملأتِها ... فرحةُ الأمس هل لديك رحيق ؟!
بين عينيْكِ خمرتى ؛ فأطِلّى ... أين منى صبوحُها والغَبوق(١)
ذبلتْ جنتى ، وأضحَتْ صحارى ... غاضَ نبْعِى بها وجفَّ الوريق
فاخْطرى بينها ترِفُّ زُهوراً ... فى رُباهُنَّ جَدْولٌ مدفوقُ

صمتَ الطائرُ المغرّدُ بالأمس (م) فأين الغنـــاء والتّحليق
أطلقيه فى الروض بين الأقاحى ... هو بالرّوض والزُّهور خليق
لا تنحِّيه عن زهورك هذى ... مَسُّهُ للزُّهور مَسٌّ رفيق
وإذا شِئتِ فاسمعيه يُغنّى ... إنه ذلك المغــــنى المشوق

(١) كناية عن حظوة اللقاء صبحاً ومساء .



جواب (الرسالة) عن الرسالة:

في عددنا الماضي نشرنا (الرسالة) التي تفضل بتبليغها صديقنا الأستاذ العقاد عن بعض إخواننا الأدباء في فلسطين ؛ وهم — كما علمت — يعتبون على (الرسالة) أنها تضن على قصائدهم وفصولهم بالنشر والتنويه . ومثل هذا العتب طالما تردد على بعض الأفواه في سائر البلاد العربية ، وفي مصر نفسها ؛ فالرسالة هناك متهمة بإيثار مصر ، وهي هنا متهمة بالإيثار على مصر . وفي التهمتين — علم الله — مباينة لوجه الحق ، ومماراة في حقيقة الواقع . ولعل الذين يتولون كبرها من الأدباء هم الذين لم تسعد (الرسالة) بتسجيل آثارهم لأسباب ليس منها الصلة الشخصية ولا الأثرة الإقليمية على أي حال

ولقد كان بحسب (الرسالة) في الاحتجاج لنفسها أن ترجو المتهمين أن يفتحوا عيونهم على مجلداتها العشرين ليروا أسماء كتاب العرب في جميع بلاد العرب مسجلة بالحق فهارسها الحافلة ؛ ولكن عاتب فلسطين الفاضل لا يريد أن يرى إلا اسمه ؛ فإذا رأى أسماء : النشاشيبي وطوقان وحمدان ورشدان ومخلص ، حسبها من أسماء الدلتا أو الصعيد ، وأكرمْ بها لو كانت !

إن (الرسالة) بشهادة الواقع مجلة الأدب العربي في جميع أقطاره . لا تؤثر قائلا على قائل إلا لإجادته ، ولا تنشر مقالا دون مقال إلا لجودته . لها مستوى لا تنزل عنه ، ومقياس لا تتسامح فيه . وهي لذلك لا تؤمن بتشجيع الضعيف ، ولا تقول بمجاملة القوي . وفي سبيل هذا المبدأ السليم القويم تعرضت لمكاره الحق ، من جفاء الكريم وسفه اللئيم وصلف المغتر . و(الرسالة) بعد ذلك تشهد الله وتقسم به أنها في مدى حياتها الصحفية لم تغفل أدباً يستأهل النشر ، ولا أديباً يستحق التنويه .

من قصص مجاز للأطفال

٢ – نشيد النوم

[للأستاذ كامل كيلاني]

« صفحة مختارة من المخطوط الجُحَوِيّ النفيس الذي عثرت عليه ، ولعله مكتوب بخط صاحبه « أبي الغُصْن عبد الله دُجَيْن بن ثابت » الملقب بجحا أو بخط أحد معاصريه :

* * *

« ... اعتذر « دُجَيْنُ بن ثابت » لضيفه « أبي شَمْشَعٍ » عن حقارة البيت الذي ضيَّفه فيه ، ولكن « أبا شمشع » قال له : « إن القليل الذي يبذله الفقير خير من الكثير الذي يبذله الغني . لأن الأول يجود بما يحتاج إليه ولا يستغني عنه ، على حين يجود الآخر بما لا يحس فقدانه ، ولا يبالي ضياعه » .

ومازال « دجين » وصاحبه يسمران حتى قضيا من الليل أكثره ، ثم بسط النَّوْمُ على المدينة جناحيه الكبيرين ، فاستسلما للرقاد هانئين ، وقد أنستهما لذة الكرى ما مرّ بهما من أحداث الزمن ومصائبه ، ومدهشات الدهر وعجائبه .

* * *

وأعدت « رَبابة » حُزَماً من قش الذرة لينام عليها صاحب الدار وضيفه الذي اشتعل رأسه شيباً فأكسبه ذلك مهابة وجلالا . ثم أقامت لولديها « جَحْوان » و « جُحَيَّة » أرجوحة جيء بها من بلاد الهند ، كانا يستعملانها في أسفارهما ورحلاتهما ، فأسرع الطفلان إليها ليناما فيها .

ولو رأيتهما لخيل إليك لوفرة نشاطهما وصغر جسميهما ، أنك ترى قردين صغيرين وقد اشتبكت أذرعهما ليندمجا في الأرجوحة الصغيرة حتى تتسع لنومهما .

واستأذنت « زبيدة » جارتها في الذهاب إلى بيتها . ثم جلست « رَبابة » على خشبة صغيرة أمام الأرجوحة وظلت تهزها في رفق وانتظام ، وتغني طفليها بصوت يفيض حناناً وحباً :

ناما — حبيبيَّ — ناما واستقبلا الأحلاما
نورا وحُسْنا ورَوْضا مُعَطَّراً بساما

تخايلَ الوردُ مُعْجِباً وفتَّـــح الأكماما
والطـــير أنشد لحناً فأبدعَ الأنغـــاما

* * *

ناما هنيئـــاً ، وقوما متى إذا الطـــير قاما
عيشا بأســـعد عيش رَغادةً(١) وســـلاما
سنين عشراً ، وزيدا عاما ، وتسعين عاماً
ونصـــف عام ، وشهراً ونصـــف شهر تماما
وبعـــد أســـبوع زيـــده أيامـــاً
وســـاعة من نهار تمرُّ قوماً كراماً
تتلو دقائق عـــشرا هنـــاءةً وابتساما
زادت ثوانيَ خمساً فاغتناها اغتنـــاما
وأتبعاهـــا ثلاثاً ثوالثـــاً ، ثم ناما

وعلى هـذه الأغنية الجميلة نام الطفلان ، ثم نامت « رَبابة » على أثرهما ، ونام كل من فى الدار .

عبد الله جبا
(وفق الأصل)
كامل كيلانى

رابطة الأدباء :

اجتمع أعضاء رابطة الأدباء وتم انتخاب الدكتور إبراهيم ناجى رئيساً ، والأساتذة : وديع فلسطين وكيلا ، وخليل جرجس خليـل سكرتيراً عاماً ، ومصطفى محمد مصطفى أميناً للصندوق ، والدكتور محمد يسرى أحمد ، وسليمان نداعضوين فى مجلس الإدارة .
أماحضرات الأدباء الذين اتصلوا بالرئيس من قبل فينبغى أن يتوجهوا بطلبات الانضمام من جديد إلى سكرتير الرابطة ، ص : ب ٤٦٣ القاهرة .

مجلة الكاتب المصرى

صدر العدد الشهرى الأول من مجلة (الكاتب المصرى) التى تصدر عن (دار الكاتب المصرى بالقاهرة) ، ويرأس تحريرها الدكتور طه حسين بك . والعدد متقن التحرير ، مونق الطبع ، متوسط الحجم ، يقع فى مائة وثمان وعشرين صفحة اشتملت على أربع عشرة مقالة لصفوة من أعيان الأدب نذكر منها : (الأدب العربى بين أمسه وغده) لصاحب العزة رئيس التحرير ، و(تكافؤ الفرصة) لصاحب السعادة نجيب الهلالى باشا ، و(الخلق فى الفن) للأستاذ توفيق الحكيم ، و(القنبلة الذرية وانعدام الذرة) للدكتور محمد محمود غالى ... فنرحب بالزميلة الكريمة ، ونرجو لها حسن التوفيق واطراد التقدم

مجلة السوادى :

رخصت وزارة الداخلية لزميلنا الكاتب المعروف الأستاذ محمد السوادى مدير شركة الصحافة المستقلة وناقد البلاغ البرلمانى بإصدار مجلة سياسية أسبوعية مصورة باسم (مجلة السوادى)
وقد قررت الشركة أن تبدأ بإصدار أول عدد من هذه المجلة فى صباح الإثنين ١٥ أكتوبر إن شاء الله وإصدار أختها (مجلة الخبر) بعد صدور الأولى بوقت قصير .

فى قصة « لؤلؤة الحب »

قرأت فى (الرسالة) قصة «لؤلؤة الحب» للكاتب الإنكليزى هـ . ج ويلز ترجمة الأستاذ عيسى حليم ؛ فلفت نظرى أن فى ترجمة الجملة الأخيرة خطأ غير سياق القصة . فقد جاء فيها :
« وأخيراً ... تكلم مشـيراً إلى « لؤلؤة الحب » وقال : اهدموها ! ... »
ويفهم من ذلك أن الأمير الهندى عجز عن بناء شىء يليق بعظمة التابوت المحتوى على رفاة زوجته . بينما الأصل وترجمته كما يلى :
« وأخيراً ... قال مشيراً إلى التابوت : أزيلوا هذا الشىء! »
ومعنى ذلك أن الأمير بعـد أن مارس فن البناء وألم بجميع فروعه من هندسة وزخرف طوال السنوات العديدة التى تم فيها بناء « لؤلؤة الحب » ... طغى حبه للؤلؤة الحب على حبه لزوجته ورفاتها البالية ، ورأى أن بقاء التابوت وسط هذا البناء الفخم نشوز لا يقبله الذوق السليم ... وشتان ما بين النهايتين .

(الموصل) **الدكتور عبد الهادى القاعانى**

تصويب :

وقع فى الفقرة الأخيرة من مقال العلامة النشاشيبى المنشور فى العدد الماضى خطآن مطبعيان نصححهما فيما يأتى :

الصـــواب	الخطـــأ
ولو بعث	ولو بعث (فلوبير)
ولو حذق العربية لأضاف	وحذق العربية لأضاف

(١) رغادة العيش : طيبه واتساعه .



من الأدب القصصي الروسي

في الظـــلام ...

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

السكون غارق فى السكون ... والفضاء العريض يموج فى رهبة ، وقد هجع كل حى إلى مضجعه يتقلب فى جنوبه ... والطير قابعة فى أوكارها تحتضن صغارها ... حتى من وُكِلَ إليه الأمن قد سرت سنة من النوم إلى جفونه فراح يغط فى خفقة وسُبات .

ولف ظلام السحر كل شيء سوى غَلَس الصبح الوليد فى الشرق وهو يتجلبب بصفرة شاحبة ... وعلى حين فجأة وجلت ذبابة أنف « جاجن » - مساعد المحصل - لعلّ حب الاستطلاع أو نزق الطيش هو الذى دفعها إلى ذلك العمل ، أو لعلها الصدفة المحضة ...

بيد أن خياشيم الأنف ساءها ذلك الدخيل فانفكّت تعطس وتعطس ... فأفاق « جاجن » إبان هذه الموجة الحادة من العطس وقد بلغ من حدتها أنها كانت ترجّ الفراش رجاً عنيفاً ...

أما زوجة « جاجن » وتدعى « ماريا ميلوفنا » — وهى امرأة مفَاضَةٌ فارعة حسناء الوجه — فهبّت فى هيعة وفزع ، وقلبت طرفها يضرب فى حلكة الظلام الدامسة ، وحملقت فينة ثم انطرحت على جانبها الآخر . ولم تلبث بعد فترة وجيزة أن عادت إلى ما كانت عليه ، وأرخت أهدابها عسى النوم يدبّ فى عينيها ثانية ... ولكن هيهات فقد سرى السهاد إليهما فلم يغمض لها جفن ...

نهضت من فراشها ، واحتذت نعليها وقامت إلى النافذة حيث تجوّل بصرها فى أكناف ذلك الليل البهيم ... وقد بدت فيه سامقات الشجر كأنها عمالقة من الشياطين ... وندّت عن « ماريا » صيحة فيها عجب وفيها فزع قطعت الصمت الذى شاع فى ثنايا الظلام . كانت تحملق أمامها وقد ثبت بصرها على شبح يتسلل فى رفق وحذر إلى صحن الدار ... فدار بخلدها أنه ربما كان جواداً نافراً ، ولكن مقلتيها ما لبث أن وضح لها ذاك الشبح فإذا به رجل يتشح بالظلام . وأومض بعقلها أنه لص فى سبيل السرقة . فاكتسى وجهها شحوباً أضفاه عليه الذعر وصفرة الغلس ...

وفى لحظات نشط ذهنها يصوّر بيراع الخيال أوهاماً وأوهاماً . قوامها سيدة تعيش فى الريف ، ثم سارق يتلصص خفية إلى حجرة المطبخ ... ومن المطبخ إلى حجرة الطعام ... وثمّت الأشياء الفضية من ملاعق وقواطع ... وبعدئذ إلى مخدع النوم وفى يده فأس حيث يعثر على الحلى والنقود ... ولم تلبث أن هوت ركبتاها ، وسرت رعدة من أم رأسها إلى أخمص قدميها ...

راحت تهزّ زوجها وتهتف فى هلع « ڤاسيا ... باسيل ... انهض ... آه يا إلهى لكأنه فارق الحياة ... استيقظ أيها الرجل باسيل أتوسل إليك ... انهض ... » فقبع مساعد المحصل فى فراشه ، وقال فى صوت شابه الاضطراب فى قرارة نفسه « حسناً ! » .

— « بالله أنق ... هنـاك سارق تسلل إلى المطبخ ، لقد كنت قائمة عند النافذة ، عند ما لمحته يختفى فى نافذة المطبخ ... إنه بلا ريب سيجتازه إلى غرفة الطعام حيث الملاعق فى الصوان .. باسيل ! ألا تدرى أنهم هاجموا « ماڤرا يجروڤنا » فى العام الماضى ؟! »

— « هه ... ما الذى حدث ؟ ! » .

— « آه !.. يا للسماء . إنه لم يدرك بعـد ما أنطق به ... انصت أيها الأبله ، هناك لص ولج نافذة المطبخ ، وسوف ينخلع فؤاد « بلاجا » فزعاً وفرقاً ... هـذا مع أن الأشياء الفضية فى الصوان بغرفة الطعام ... » .

— « هذا حديث لَغَبٌ ؟.. » .

— « باسيل ... لا أطيق ذلك ... أخبرك بالخطر الجاثم ، وأنت تفحفح فى نومك غير ذى بال ؟ ! ما الذى ترجو من وراء ذلك ؟ ! أتشاء أن نجرَّد من أموالنا وحاجياتنا ؟ » .

فثاب مساعد المحصل إلى نفسه وقام من فراشه يملأ صدره بنسيم السحر المنعش . ثم تثاءب فى تؤدة وتمهّل ... وراح يتمتم :

— « ليس ثمت من يقف على سريرة تلك المخلوقات الضعيفة العجيبة ... النساء.

سوى الله !. أما بمقدورك أن تتركى الإنسان يغمض جفنيه جنحاً من الليل لا تزالين تهزينه حتى يستيقظ ، فتطرقى سمعه بهذا اللغو ! » .

— « ولكن أقسم يا باسيل أنى لمحته وهو يدلف إلى حجرة المطبخ ! » .

— « وما الذى يثير عجبك من ذلك ؟! إنه بلا شك الجندى الذى يعشق « بلاجا » وتعشقه ... ويسرى إليها على الدوام فى هزيع الليل ... » .

— « هه !.. ما الذى تفوه به ؟!. » .

— « ... إنه الجندى الذى يعشق « بلاجا » ... » فصاحت « ماريا ميلوفنا » فى زحير .

« علة أقبح من العذر ... إن التلصص أخف وطأة منها ... لست أرضى عن هذا الفاسق بدارى ... » .

— « عجباً ... إننا طهيرا الثوب عفيناه ... فما الذى يضيرنا من وجود هذين الفاسقين ؟! وماذا نفيد من تدويم هذه الكلمات الجوفاء ؟ يا فتاتى إنها الحياة ... وهكذا جبل الخلق منذ فطر العالم وما هذا الجندى بملاك يعف عما درج عليه غيره ... » .

— « كلا يا باسيل ... فهذا ما لا يتفق وهواى ... إنى لا أكاد أتصور أن مثل هذا !. هذا !. يحدث فى عقر دارى ... ينبغى عليك أن تهمّ إلى المطبخ ، وتطرد هذا الفاسق شر طردة وفى الغداة سأنهى إلى « بلاجا » أنها ستفقد عملها إن هى عادت فسلكت هذا السبيل الشائن، وحين أغادركُ إلى ظلمة القبر وأودّع الحياة ... فافعل ما يحلو لك ... ولكن إياك أن تأتى ذلك ، وأنا على قيد الحياة ... باسيل ! أتوسل إليك أن تقوم إليهما ....» ، فقال « جاجن » فى تهيم وتذمر :

« عليك لعنة الله ... بالله تدرى بمنظارك النسائى الضعيف : ما الذى أفعله لها ؟ ! » .

— « باسيل ! . إنى لأحس أن الإغماء يغشينى ... » .

فعجل « جاجن » بوضع قدميه فى نعليه ... وراح يهمر لعناته فى سبيله إلى المطبخ ...

وكان الظلام يطوى كل شىء تحت مطارفه السود ... فراح مساعد المحصل يتلمس طريقه فى حذر ... واتخذ وجهته نحو غرفة الأطفال ، وأيقظ الحاضنة قائلا فى تحيط :

« لقد أخذتِ معطفى لتنظيفه مما علق به ! . فأين هو ؟ ! يا « فاسيليا » ! » .

« لقد ناولته « لبلاجا » لتنظفه ... يا سيدى ! » .

— « يا للعبث ... أنت تأخذينه ثم تردينه !.. ماذا اطرح على جسدى الآن ؟ ! » .

***

وما كاد يصل إلى المطبخ حتى اتخذ سبيله إلى ركن قام فيه صندوق من الخشب رقدت عليه الطباخة « بلاجا » ... فقال وهو يتحسس كتفيها ، ويهزهما فى عنف « ... بلاجا !.. بلاجا !.. لا تدعى النوم أيتها الخبيثة الماكرة ... من الذى ولج غرفتك منذ برهة وجيزة ؟ ! » .

— « سى !. سى !. سيدى ! عم صباحاً : من الذى يجرؤ على ولوج غرفتى ؟ ! » .

— « آه ... دعينا من هذا النفاق والإنكار فليس هناك مجال لتصديقهما . انهضى ... لقد أسرى ذلك الشرير إلى غرفتك ، وأنت راضية عن ذلك !. ألا تسمعين ؟ وليس هناك ما يدعوه إلى إلى الحضور سوى أنت ! » .

— « هه !. سيدى ... أمَسَّتك لوثة من الشيطان ، فتقذفنى بهذا الهذيان ؟ !

رحماك يا رب ... أظننتنى بلهاء ساذجة ؟. أشقى هنا سحابة يومى ولا أركن للراحة ولو لحظة ... وتأتى فى هزيع الليل فتحدثنى هكذا !. ولا أتقاضى عن كدى وإخلاصى فى خدمتكم سوى أربع روبلات فى الشهر ... إنى لأرغب العيش عند تاجر من التجار على أن أقابل بمثل هذا الجحود والإهانة ! » .

— « انهضى !. انهضى .. لا سبيل إلى التنصل بالشكوى والتذمر ... آه ... لابد أن يغادر عشيقك هذه الغرفة فوراً ..! أوعيتِ ما أقول ؟!. » .

فقالت « بلاجا » وقد هدجت من صوتها بوادر الدمع : « لابد أن هذا يخجلك يا سيدى !. أهكذا تفعلون معشر المتعلمين ؟ أتسمح لكم أنفسكم أن تتهمونا وتقسوا علينا بدلا من أن ترفهوا عنا ، وتفرجوا عن أنفسنا ؟! نعم من السهل عليكم أن تهينونا ..

فليس هناك من ينبرى لنصرتنا ويقف إلى جانبنا » . وانفجرت الدموع من عينيها فراحت تنوح وتنهنه ...

— « هيا ... انهضى ... فما يجوز علىّ هذا الخداع ... لقد أرسلتنى سيدتك لأخبرك أنها رأت شريراً يدلف إلى غرفتك ! » ولكن « بلاجا » راحت تديم نواحها ونشيجها ... فلم يجد « جاجن » بدا من أن يعترف من قرارة نفسه أنها مظلومة طاهرة وقد ألصق بها هذه التهمة الشنعاء إفكا وبهتاناً ...

وهمّ بالعودة إلى زوجته وهو يقول : « بلاجا ... لقد أخبرتنى «فاسيليا» أنها ناولتك معطفى لتنظيفه مما علق به فأين وضعتيه ؟! »

— « آه ... معذرة يا سيدى ... لقد غفلت عن وضعه على مقعدك ... إنه معلق هناك على المشجب القريب من الموقد ! » .

فطرحه « جاجن » على منكبيه ، ومضى فى هدوء إلى غرفة زوجه ...

* * *

أما « ماريا ميلوفنا » ، فلبثت تنتظر بعلها فى قلق وهى تهمس وتهجس :

— لقد مضى منذ حين ولم يؤب ! لعل ذلك الجندى الشرير لبط به الأرض ... لعل ... لعل ...

وعادت تصور بيراع الخيال صورة لزوجها ، وهو يمضى فى ظلام المطبخ ... ضربة على أم رأسه من فأس ... موت بلا نبس ، ودم يتدفق من جروح مثخنة ... وانقضت إثر ذلك خمس دقائق فى إثرها خمس ... ثم نصف ساعة ... وأخيراً ها هى ذى الساعة قد بلغت السادسة ودقاتها ترن فى جوف الليل البهيم فتزيده رهبة وجلالا ... فتبلبل جبينها بعرق بارد وهى غارقة فى فراشها ، وصاحت على غرة : « باسيل ... باسيل ... » فأجابها صوت زوجها على مقربة : « ما ذا دهاك ؟ ! لم تصرخين هكذا ؟ ها أنذا ... »

— أأصابك سوء ؟!

— سوء ؟ كلا ...

ومضى إلى حافة الفراش وهو يقول :

— « ليس هناك أحد على الإطلاق ! إنها أوهامك وقسوتك على هاته المخلوقات ... إن بلاجا لا تقل عنك عفافاً وصوناً ... كم أنت حمقاء ! . كم أنت ... » .

وراح ذلك السيل من السباب واللعن يتدفق من فم «جاجن» لقد داعب الأرق جفونه فعبثاً يحاول النوم ثانية ... فقال وهو يضحك :

إنك لواهمة ، مجهدة الأعصاب ... ويعوز نفسك المضطربة فترة من الراحة ... يجمل بك أن تذهبى فى الغداة إلى الطبيب فتخبريه بهذه الأوهام والخيالات ... فيتبصر فى حالتك ويصف لك ما يريح أعصابك المكدودة » ...

فقاطعته زوجه قائلة :

— « ما هذا ! ! رائحة ... قطران ! ! أو شىء آخر كالثوم أو البصل إن هذا يتخلل أنفى فى حدة ... » .

— « نعم ! ثمة رائحة غريبة ... لست بنائم ... سأشعل الشمعة ، أين أعواد الكبريت ... آه تذكرت ، سأعرض عليك صورة لمحصل قصير « جستيل » العظيم ... فقد أعطى كل من كان فى المكتب نسخة من صورته عندما ودعنا البارحة ... » .

أشعل « جاجن » الشمعة وقبل أن يخطو خطوة لإحضار الصورة رنّت فى أذنه صرخة ندّت عن زوجته ... فلما التفت إليها رآها تحملق فيه وقد اتسعت مقلتاها واستقرت عليه ... بطل مهما الفزع والهلع والعجب والسخط فى آن واحد ...

صاحت زوجته وقد علا وجهها الشحوب : « أتناولت معطفك من المطبخ ؟ ! » .

— « لم ؟ ! » .

— « انظر إلى نفسك ! » .

وما كاد يبصر « جاجن » ما على جسده حتى راح يحدق فى عجب وذهول ... لم يكن مطروحاً على كتفه معطفه بل معطف الجندى الشرير ... ماذا أتى به إلى هنا ؟ ! ! وبينما كان يوجه إلى نفسه هذا السؤال ... قالت زوجته فى غمغمة تنم عن سخرية وسخط «أتقول ؟ إن (بلاجا لا تقل عنى عفافاً وصوناً) ... أيها الخنزير الأبله»

ثم غرقت فى شعاب الفكر وعاد يراع الخيال يرسم صورة مخيفة : ظلام ... هدوء ... همس !.. و !..

(طنطا) **مصطفى جميل مرسى**

استدراك :

حدث خطأ مطبعى فى عنوان قصتنا التى نشرت فى العدد (٦٣٨) وهو « حينما كان طيباً » والأصل « حينما كان صبياً » فبذلك يستقيم معنى العنوان مع سياق القصة .